القرداتي

اسم العمل : القرداتي
النوع : قصص قصيرة
تأليف : جمال زكي مقار
تصميم الغلاف : أحمد الملواني
إخراج داخلي : عبدالقادر فايز
الطباعة : اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر : الدار للنشر والتوزيع
المدير العام : محمد صلاح مراد
تليفون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
٠١٠١٤٦٤٧٢١
البريد الإلكتروني : eddar_press@yahoo.com
فيس بوك : www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٥٧٩٧
التـرقيم الـدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-183-8

الفرداتي

قصص قصيرة

جمال زكي مقار

الدار
للنشر والتوزيع
٢٠١٧

إهـــداء

إلى روح علاء الديب التي تطل على طوال الوقت،

نعـم، روحـه المرحـة المتفائلـة الطيبـة البريئـة، التـي تمنحني الأمل، كـم كنـت أتمنى أن يكـون بيننـا، وأن أزوره في بيتـه لأهديـه هـذا العمـل وأرى الفرحـة وهـي تطـل مـن عينيـه كعادته كلمـا أهديتـه عمـلاً لـي، تلـك الفرحـة الطفوليـة؛كانت تبعث في انتشاءً يظل يصحبني كلحنٍ غامضٍ يمد خيطًا سريًا بيننـا علـى البعـد؛ يقينـًا مـازال هـذا اللحـن سـاريًا باقيـًا علـى الرغم من افتراق الدار.

١- القرداتي

(مهداة للأهل والإخوان)

تثاءب الليل غضباً فوق التل الذي تعلوه أكوام من القمامة، ونفخ من فمه ريحاً عاصفةً عاتيةً تحمل برد شتاءٍ قارسٍ، زأرت في غباءٍ، ثم صفرت وهي تنفذ من فتحات ألواح الصفيح المهترئ للحجرة القابعة فوق التل، وأخذت تضرب جسد القرد النحيل، الذي ظل طوال الليل يرتجف من وخزات البرد.

حتى جاء الصباح ومعه شمس شتائية مريضة صفراء الوجه، حاولت قدر الجهد حتى نفذت أشعتها من فتحات الصفيح الضيقة في هيئة حزمٍ يضطرب في ثناياها غبار دقيق، مست بأناملها أطراف القرد، ووشت ببعض دفءٍ لدمائه التي كادت تتجمد في عروقه من البرد والخوف.

رنا ببصره إلى الطبق المملوء بخبزٍ مبلولاً بالماء الذي لم يمسه منذ الأمس، رأى سرباً من الذباب يقف عليه ويعمل أفواهه وأقدامه فيه، أشاح ببصره عنه وغرق في ذكرياتٍ بعيدةٍ.

***

منذ أشهرٍ كان هناك؛ في غابةٍ تحوطها جبال شاهقة. غابة عامرة بالأشجار من كل نوعٍ وصنف، يهبط من تلك ليتسلق تلك.

كان فتى يافعاً واعداً يقف على أبواب الفحولة فخراً لعشيرته من القردة، هو الذي دافع عنهم أمام هجوم العشائر الأخرى في محاولاتها انتزاع مواطن الطعام منهم، انتصر لأهله، طرد الغزاة بقوة ساعديه المفتولين، وتوج ملكاً في زفةٍ من صرخات النصر.

ثم غازلته عينا تلك القردة اللعينة من قبيلة ربابيح سريعة ورشيقة، رمت إليه شباكاً من نظرات عينيها، وكلما سعى خلفها زاغت منه وتدللت عليه، وكلما راوده الزهد فيها استكانت له حتى تعيده لحوزتها، ولما جن بها ومنها طاردها مطاردةً مستميتةً، هربت منه وأخذته بين شقوق الجبال، ثم انفلتت وضاع أثرها، ظنها تختبئ خلف جرف صخري أملس، فقفز قفزةً غاضبةً طائشةً أوقعته في الجرف ، انزلق جسده وانتهى به إلى شق غائرٍ، عندها جاءت القردة، ظلت تنظر إليه حيناً حتى أدركها اليأس، فرمت إليه نظرة وداعٍ أخيرةٍ حسيرةٍ مبللةٍ بالدموع وانصرفت عنه.

راح يبعث بصرخاته، جاءه بدلاً من النجدة ثلاثة فتيةٍ يافعين، وبنظرة واحدة أيقنوا أن الحظ ساقه إليهم، هاهو أسير لديهم، نظروا إليه وتضاحكوا ساخرين منه:

- أنت وقعت يا ميموني؟

قال واحد منهم لآخر:

- إذهب وهات شبكةً وعصا غليظةً طويلةً.

جرى الولد وغاب عن عيونهم.

جلسوا على حافة الجرف الصخري يأكلون البلح المجفف ويرمون القرد بنوياته ويتضاحكون، وبينما كان يحمي وجهه ورأسه بيديه سمعهم يتحدثون في شأنه، قال واحدٍ منهم:

- انظروا إلى يديه، ألا تشبه يد الإنسان؟
- القرد كان يوماً إنساناً، حتى أغضبت بعض أفعاله السماء، فسُخِطَ قرداً.

أمسك كبيرهم كف الفتي الذي يجاوره، وقال ساخراً:

- سبحان الله، وماذا اجتنيت أنت في حق أهلك؟!

انفجروا في الضحك، وتضاربوا بالأيدي، ثم عادوا يتساءلون:

- أيمكن أن يعود القرد إنسانا؟

قال واحد منهم ساخراً متعالما:

- ذلك ممكن جداً، لو ضاجع امرأة، فالمرأة يمكنها أن تجعل القرد رجلا، كما يمكنها أن تجعل الرجل قردا.

ضجوا بالضحك، بينما كان القرد يستمع إلى ما يقولونه مغتاظاً، سبهم ببعض صرخاتٍ يعرفونها، قلدوا صرخاته وحكوا أنوفهم بسبابتهم ليزيدوه غيظاً على غيظٍ، ثم عاودوا قذفه بنويات البلح.

***

جاء الولد لاهثاً، يحمل عصا غليظةً طويلةً وشبكةً مُسِدَتْ حبالها من ليف النخل، وقف الفتية استعداداً، وبدأوا العمل، طرحوا شبكتهم على القرد، راغ منها، عاودوا رميها مرةً من بعد مرةٍ، حتى أوقعوا به في حبائلها، نزل إليه واحد منهم، وعندما حاول رفعه هبشه هبشةً أدمته، تناول العصا وأنال القرد ضرباتٍ ثقالاً دوخته، ثم تعاون الجميع في رفعهما.

قاوم وهم يحملونه، نال خبطاتٍ أخرى من العصا الغليظة، جعلته يدرك جموح هؤلاء الفتية وقسوة قلوبهم، أن متألما وتحسس مواضع الضربات في جسده بيديه.

***

قال لهم التاجر:

- عندي كثير من أمثاله، لم يعد له سوق.

بمرور الوقت أرهقهم أكله وحراسته، ومن تاجرٍ لتاجرٍ كانوا يسحبون القرد بحبلٍ من رقبته؛ تصحبهم سخريات الناس:

- قريبكم يا ولد أنت وهو؟
- إيه، كان مسافراً للعمل في الخارج ورجع؟

لمَّا أصابهم اليأس تشاوروا في أمره، و قال واحد منهم لتاجرٍ:

- ننزل بثمنه يا أبو خالنا.
- عشرة جنيهاتٍ لاغير يا مبعر، أ تنفع معك؟

قال وأخرج الورقة النقدية من جيبه، وزام زومةً خشنةً:

- همم؟
- لكن....

كاد يعيد الورقة إلى جيبه، قال:

- أبقه عندكم حتى يرتفع ثمنه.

نتش الولد الورقة المالية من يده، ورمى الحبل في حجر التاجر وهو يسبه ويلعنه في سره.

وهم يبتعدون، صاح فيهم التاجر سائلاً:

- ما اسمه؟
- ميمون يا ميمون.
- يللا، يا أولاد.....

جروا وهم يضحكون.

***

هبط به التاجر إلى القاهرة حاملاً رسالةً من الصقور والحيات والعقارب والطيور الزاهية الألوان، ووقف في سوق السيدة عائشة، مضى الوقت به ولم يبع شيئاً، وقبل أن يقفل النهار،جاء طبيب بيطري، اشترى حيةً من حيات (الطريشة)، ثم جاء فتى واشترى صقراً، واستبشر التاجر خيراً.

انصرف النهار وهَمَّ يجمع حاله وماله، جاء رجل يلبس جلباباً نظيفاً به رقع كبيرة ووقف يتأمل القرد، ثم سأل:

- أ متعلم هذا القرد؟

قال التاجر ساخراً:

- لا، لم يذهب يوماً إلى مدرسةٍ.

- يا أخ، كن حلواً في ردك.
- القصد والقول، جبلاوي، ينفع معك؟.
- كم عمره؟
- صغير؛ ابن عامين ونصف العام.
- ومطلوبك.
- مئة جنيهاً.

وبعد جدالٍ وفصالٍ، نزل التاجر بالثمن عشرتين من الجنيهات، وناول القرداتي الحبل، فسحب القرد ومضى.

***

من يدٍ إلى يدٍ إلى يد، لم يستطع أحد رياضته، كان عاصياً عصيا على التدريب، ليس لغباءٍ منه ولكن أملاً في أن يُطلق سراحه فيرجع إلى بلاده البعيدة وعشيرته الحبيبة.

كان إذا ما اشتد صاحبه في معاملته، لجأ إلى الإضراب عن الطعام والشراب، حتى يخف وزنه ويشف جلده، يرقد قريباً من الموت، يرى بعين خياله ناسه في الجبال البعيدة ينظرون إليه، ويحلم أنه عاد إليهم، يراهم فرحين بعودته.

وعندما يدرك اليأس صاحبه، يبيعه لصاحبٍ جديدٍ.

هكذا حتى انتهي إلى يد ذلك القرداتي اللعين، سمع اسمه من صاحبه القديم الذي سلمه الحبل والعصا الخيزران وهو يقول:

- مبروك عليك ميمون يا مأمون.

أمسك مأمون الحبل بيدٍ والعصا باليد الأخرى، وأناله عربوناً من عدة ضرباتٍ قاسيةٍ، ثم جره جراً، وهو يقول له:

- نهارك أسود حالك السواد معي، لتعلم يا مسخوط أنني قرداتي ابن قرداتي.

حين وصلا إلى الحجرة الصفيح، كانت الشمس تضع عن كتفيها أحمال نهارٍ قاسٍ وتهوى من التعب خلف الجبل، رماه في الحجرة ، وأحكم إغلاق بابها عليه، وهو يقول:

- الصباح رباح يا ربّاح.

***

الآن، الجوع والبرد ينهشان جسده النحيل، يسمع نحنحة صاحبه الجديد؛ وهو قادم نحوه، فيشتد ارتجاف جسده.

فُتِحَ باب الحجرة؛ فصفع ضياء الشمس الباهت عينيه، أخفى وجهه بيديه. وحين رفع كفيه ارتمى عليه ظل صاحبه الثقيل؛ وهو

يسعل سعالاً جافاً قاسياً، رفع كفيه عن وجهه فرأى صاحبه يقف عند رأسه بجلبابٍ متسخٍ تعلوه سترة تبقعت بالزيت، نظر إلى الطبق الفخار المملوء بالخبز المبلول، همهم:

- أ تعني أن الأكل لم يعجب سموك؟ اللطف لم يعد ينفع معك.

استدار خارجاً، وأغلق الباب، غاب سويعةً وعاد حاملاً في يدٍ قطةً صغيرةً تكاد ضلوعها تقفز من الجوع، بينما أمسك في اليد الأخرى سكيناً ماضيةً.

انحنى على طبق الطعام وهو يقبض على القطة الصغيرة من جلد قفاها ويدس فمها فيه وهو يقول:

- كلى يا ملعونة.

حاولت القطة التملص من قبضته القاسية، ثم أخذت تموء من الألم مواءً رفيعاً يكاد يثقب رأس القرد، بينما واصل الرجل الزجر:

- كُليّ، كُليّ، آه، أنتِ لا تسمعين الكلام.

حز رقبتها بسكينه فانبجس الدم منها رشاشاً، أغرق وجه الرجل وجعله مخيفاً، رمى بها بعيداً في أحد الأركان، اقترب من القرد ورماه بنظرةٍ قاسيةٍ تشى برغبته في القتل، حتى بال القرد على نفسه، بينما ظل الرجل يقترب منه وهو يلوح بالسكين:

- وأنت يا روح أمك وأبيك، كُلْ.

ارتعد جسد القرد ارتعاداتٍ عصبيةً متتاليةً، صرخ الرجل فيه:

- ها.....

أقبل القرد على الطعام، ضرب كفه الصغيرة فيه واحتفن حفنةً من الخبزالمبلول، أودعها فمه الذي جف ريقه، تلوى من مذاقه القاسي، ابتلعه بصعوبةٍ وتوقف عن التقاط الطعام، نظر إلى الرجل الواقف عند رأسه، ورمش جفناه، رماه الرجل بنظرةٍ مغيظةٍ، ولوح بالسكين في الهواء كأنه يذبح قرداً خفياً، وصاح:

- ها.

فاحتفن القرد حفنةً أخرى، كان مذاقها أطيب أثراً عليه من الأولى، لكنه توقف فعاود القرداتي الصراخ والتلويح بالسكين في الهواء:

- ها.

ومن ها إلى ها، ظل يحتفن الطعام حفنةً حفنةً، وأحس بمذاقه الطيب في فمه وبدفئه في معدته، وتسلل الدفء لروحه فأنعش قلبه الخائف، وسمع الرجل وهو يركله قائلاً:

- صنف كلبٍ.

وقبل أن يخرج رماه بنظرةٍ مخيفةٍ، قال:

- هنا ليس معلفاً للبهائم يا عين أمك، كل واشبع وشد حيلك، شغلنا صعب ويحتاج إلى قوةٍ وشدةٍ.

***

مرت أيام قاسية عليه، لفته فيها الوحدة وقسوة الحبس، دار في محبسه يبحث عن منفذٍ للهرب، وقلب في رأسه الحيلة تلو الحيلة، لكنه كان في كل مرةٍ يهز رأسه رفضاً، كان يدرك أن سهمه لو طاش وخابت حيلته، سيلقى مصيراً قاسياً على يد ذلك السفاح، الذي كان بدوره يعرف ما يدور في رأس القرد، قال له:

- وحياة أمك ما تفلت من يدي أبداً، ولو فلت سأعيدك حتى إذا كنت في جبال واقٍ واق، ولو أعدتك قطعت رقبتك، كن شهماً، وافهم قولي وكلامي أحبك وأدلعك، تتلكع أرقصك بالخيزرانة.

قال ولسعه بالخيزرانة :

- كل.

يوماً من بعد يومٍ، أكل وأكل حتى انصلب ظهره واستد عوده واستقامت مشيته، والقرداتي ينظر إليه بعينٍ خبيرةٍ تنتظر.

***

وذات صباحٍ، جلس القرداتي على حجرٍ يبرز من الأرض، وأشار ببنانه إليه:

- تعال.

جاء، مشى بكفه على رأسه، وربت على ظهره، وقال له متوددًا:

- يا عبيط، الدنيا كلها قرود، كلنا قرود، أنا وأنت والناس من حولنا، لكن سبحان من سلط أبداناً على أبدانٍ، وأنا وأنت رزقنا على الله، لو شددت حيلك معي أزوجك زيجة عزةٍ من قردةٍ صبيةٍ وطريةٍ كالمهلبية يملكها مسعود الودود في حارة بئر الجن.

استكان القرد له؛ ومست روحه لمسة كف القرداتي، رآه يتناول رقاً صلصلت صاجاته حين رفعه وهزه في الهواء، قال له:

- انظر إليَّ، سأريك رقصة العجوز.

نهض القرداتي ورقص محنياً ظهره، والقرد ينظر إليه منتشياً، قال الرجل له:

- يللا، أرني الرقص.

لكن القرد لم يتحرك من مكانه، فقط حملق وراقب نظرة الغضب وهي تسرح على وجه القرداتي، وارتعد قلبه حين قال له وهو يجز على أسنانه:

- طيب طيب، هذه نومة العازب، طبعاً أنا وأنت نعرفها جيداً.

ارتمى الرجل على الأرض يتمرغ ويتقلب، ضحك ونظر إلى وجه القرد، ثم نهض من رقدته، وقال:

- يللا، يا حلوالملامح، نم نومة العازب.

ابتأس وجه القرد، ورمش جفناه، قال الرجل:

- يا ابن الحرام.

تركه ومضى عنه مغلقاً الباب عليه، غاب ساعةً قبل أن يسمع القرد سعاله الجاف الحاد يخالط ثغاء معزةٍ، غامت عيناه ودق قلبه دقاتٍ سريعةً مضطربةً، وسابت مفاصله وأعصابه ودار سريعاً في أركان المكان يبحث عن مهربٍ، ولما فتح الرجل الباب، توقف ينظر إليه وهو يمسك بعنزةٍ ضامرةٍ نحيلةٍ يجرها من أذنها جراً، جرى إلى أحد الأركان واضعاً كفيه فوق رأسه، جلس على الأرض متكوماً محاولاً الاختفاء وهو يموء كأنه قطة صغيرة.

خطا الرجل داخلاً، تسبقه رائحة عرقه الزنخة، رمى المعزة في عنفٍ، وجفف عرقه في طرف جلبابه، التقط أنفاسه واستجمع قوته، وقال مخاطباً العنزة:

- رقصة العجوز يا بنت ال.....

وراح يرقص محنياً ظهره، قال لها:

- ارقصي.

لكن المعزة المسكينة حملقت في غباءٍ، وطبعاً لم تدرك شيئاً، زام القرداتي، وقال:

- نومة العازب يا حلوتي، هيا.

وارتمى على الأرض يتقلب، ثم نهض، وزام في الهواء زومةً مخيفةً؛ وهو ينفض التراب عن جلبابه، أدار البصر فيهما، وقال:

- أنا سأعرف كيف أربيكما، أنت وهي.

ضرب كفه في جيب سترته الداخلي وأخرج السكين الماضية، ومشى بها على رقبة العنزة، حزها من الوريد للوريد، فارتمت تتخبط في دمائها، بينما شل الرعب القرد، اقترب الرجل منه ممسكاً بالسكين التي

تقطر دماً، تراجع القرد في بؤسٍ ومسكنةٍ إلى أحد الأركان، قال الرجل مهدراً:

- وأنتَ يا سخطة، الآن جاء دورك، أرني رقصة العجوز، ها.

رقص بقدمين دائختين، ودار حول نفسه، والرجل يصرخ فيه:

- ها.

وبينما كان القرد يدور، التقط الرجل الرق المعلق إلى مسمارٍ، أمسك به وبدأ يوقع عليه بأصابعه:

- الليل الليل يا ميمون.

بدأت خطوات القرد تنتظم مع وقع أصابع الرجل على الرق، وتتداخل مع صليل صاجاته، وبدأ القرد ينسجم مع الإيقاع ويرقص بانسجامٍ عالٍ، راق له الحال فظل يرقص.

ولما انتهى الرجل من الدق على الرق، هتف به:

- ها.

عندها توقف القرد عن الرقص، ودون أن يهتف به الرجل نام نومة العازب، تقلب وتمرغ في تراب الأرض، وعندما انتهى نظر إلى القرداتي، وجده سعيداً مسروراً، فاطمأن قلبه، مشى الرجل إليه وأخرج

قطعتي كرامل من جيبه، دس واحدةً في فمه والأخرى زج بها في فم القرد هاتفاً وهو يهز الرق في الهواء:

- تحيةً للقرد.

فصلصلت الصاجات.

***

يوماً بعد يومٍ، ازداد القرد حنكةً وبراعةً في الرقص حتى أذهل القرداتي، نظر إليه متعجباً متسائلاً:

- أ أنت قرد أم جني؟

هز القرد رأسه منتشياً، قفز في الهواء، ولف ذراعيه حول رقبة القرداتي، وتبادلا القبلات.

هكذا أنس أحدهما للآخر، ولما اطمأن القرداتي للقرد تمام الاطمئنان، ألبسه طرطوراً أحمر وسترةً صغيرةً تشبه سترته، نزل به من الجبل إلى دروب المدينة. وساح معاً في شوارعها، وأذهلا الخلق الذين كانوا يتحلقون ليروا ذلك القرد أبا صديري وهو ينام نومة العازب، ويرقص رقصة االعجوز ويعجن عجين الفلاحة ويزحف ليصور للناس كيف خرج الملك من مصر ذليلاً منكسراً.

الناس جميعهم ضحكوا وفرحوا، ووضعوا نقوداً كثيرةً بسرورٍ في الرق المقلوب للقرداتي.

***

امتلأ جيب القرداتي بالنقود، ولعب بالفلوس لعباً، ولما راق له الحال والبال، عزم على الزواج، فخطبت له الخاطبة بنتاً بيضاء طريةً وحلوةً، وقبيل يوم زفافه بأيامٍ قليلةٍ أقسم أن يحلي فم القرد، أخذه إلى مسعود الودود في حارة بئر الجن، هناك أدخله على القردة مهلبية، وعلى الرغم من أن مهلبية لم تكن مهلبية بل كانت تسبقه بأعوامٍ كثيرةٍ، إلا إنه رضى بما قُسِمَ له، وأبلى معها إبلاءً حسناً.

***

في يوم زفاف القرداتي رقص ميمون كما لم يرقص من قبل، حتى قيل إنه سحب البساط من تحت قدمي الراقصة السمينة التي لم تستطع أن تجاري رشاقة حركاته و خفة ظله.

***

لم يعد القرد قرداً ولا القرداتي قرداتياً، بل صارا صديقين لايفترقان إلا ساعات النوم، حتى عندما يعودان من يوم عملٍ شاقٍ وطويلٍ؛ كان يأخذه معه إلى البيت، ولما لم تكن امرأة القرداتي امرأةً نكديةً بل كانت

طروباً تحب اللعب والمرح، لذا كانت تضع أمامهما الطعام وهي تتمنى لهما الهناء والشفاء، وبعد أن ينالا حظهما من الطعام، يخرجان معاً ليقضيا مع الجيرة أمسياتٍ رائعةً في مجالس السمر التي تقام أعلى ربوةٍ تطل على المدينة.

هناك حيث تدور الجوزة وأكواب الشاي على الجلوس، أحب القرد قصعة النار؛ واختفى عن قلبه ذلك الخوف الغريزي منها، لأنها كانت تبعث بالدفء إلى أوصاله، ثم بدأ يتابع الصبي الذي يدس غلاية الشاي في النار، ظنه حيناً قرداً صغيراً، وأخذ يقلده، وما إن يجتمع السامر وتضرم النار في القصعة حتى يسرع ويدس إناء الشاي في النار. وعندما يغلي الشاي ويفور، يدرك القرد ما يجب عليه أن يفعله، فيتناول قطعة من القماش، يبدأ في صب الشاي في الأكواب ويدور بها على الشاربين.

مع الوقت أصبح القرد مركز مجلس السمر، حتى جاء رجال من مناطق أخرى ليشاهدوا هذه العجيبة ويشهدوا أن لله في خلقه شئون لم يدركوها ولو عاشوا مقدار ما عاشوه مرتين.

***

لكن دوام الحال من المحال، كيف وكل شيءٍ على ما يروم ويرجو؟

رزق القرداتي ولداً يشبه القرد شبها قاطعاً ماثلاً للأعين التي تخفي ابتساماتها الساخرة في أكمام جلاليبها. قالت النسوة إن ذلك لأن امرأة القرداتي وحمت كثيراً وهي ترى القرد أمامها، لكن ذلك لم ينفع شيئاً مع حزن القرداتي، الذي كتم ألمه بين ضلوعه وقَبِلَ مشيئة الله، ولما شب الولد وصار له من العمر سبعة أعوامٍ، ظهرت عليه مخايل العبط، وأخذ يرمش بجفنيه كما يفعل القرد.

***

ازداد القرداتي حزناً على حزنٍ، ووجد في الكيف سلواه، كان يرصع حجارة الجوزة بفصوصٍ كبيرةٍ من الحشيش، وصار يدخن في شراهةٍ بالغةٍ، حتى ازداد سعاله جفافاً وقسوةً، كان يكح حتى تجحظ عيناه ويحترق صدره، لكنه لم يتوقف يوماً عن الخروج بقرده سعياً وراء الرزق، وكان ميمون يعوض يأس صاحبه وحزنه، فيزيد الرقص مرحاً وشقاوةً، بل يأخذ منه الرق ويمشي به مقلوباً، حتى يزيد من هبات الناس وعطاياهم لهما.

ثم جاء صباح بارد غائم، ولم يجيء صاحبه ليضع له الطعام ويربت بيده على رأسه ويلقمه قطعة حلوى أو كرامل. انتظر القرد حتى عضه الجوع عضاً، ارتفعت الشمس حتى أصبحت في سمت السماء، لكن أحداً لم يأت.

وصار مزاج القرد حاداً عصبياً، دار حول نفسه في أركان الحجرة، دار ولف حتى تعب، فجلس على الحجر الذي يبرز من الأرض واضعاً وجهه بين كفيه، وبكى بكاءً مراً.

مر اليوم، وأُذن للمغرب، عند ذلك أيقن القرد أن مكروهاً أصاب صاحبه وإلا لِمْ لَمْ يأتْ؟ تكوم في أحد الأركان يمص أصابعه ويئن من قرصة الجوع، ثم خطف النوم جفنيه، فنام وقام ونام، حتى جاء الصباح، انتظر أن يجيء أحد إليه، لكن الوقت مر ولم يحضر أحد، جن جنونه، وراح يضرب الصاج بيديه ويصرخ، لعل أحداً يسمع صراخه، وفي نوبة هيجان انتزع لوحاً من الخشب الذي يثبت الصاج ببعضه البعض، وانهال دقاً على الصاج، حتى سمع أقداماً تهرول وأصواتاً تعلو، ثم انفتح الباب وأطلت زوج القرداتي بعينين باكيتين مقروحتين من كثرة العياط، كان طفلها الصغير يمسك بطرف جلبابها، وينظر في خوفٍ للقرد الذي بدا مشهد هياجه مخيفاً، اقتربت المرأة منه ووضعت كسرةً جافةً أمامه، وقالت له:

- الرجل مات يا ميمون، مات.

رف جفناه رفاتٍ سريعةً وكادت دمعة تفر من عينه، بينما واصلت:

- سامحني، نسيتك.

غرق القرد في صمتٍ غميقٍ وتناول كسرة الخبز، قضمها بأسنانه، وراح يأكل وهو يرقب المرأة وطفلها وهما يستديران ليمضيا عنه ويغلقان الباب عليه.

***

في الصباح، جاءت المرأة ومعها كسرة خبزٍ جافةٍ في يدٍ وفي اليد الأخرى ابنها، ناولته كسرة الخبز، وجلست محزونةً على الحجر الذي يبرز من الأرض، ثم قالت تسأله:

- من أين سنأكل ونشرب، من أين؟

اضطرب قلبه ورمش جفناه ولاح أمامه مصيره البائس، سيموت هو أيضًا من الجوع، رنا طويلاً إلى الولد الواقف الذي يمسك بجلباب أمه، فأدركت المرأة ما يرمي القرد إليه، وقالت:

- أ معقول ما تفكر به يا ميمون؟!

استدارت المرأة وطفلها ممسكاً بطرف جلبابها، جرته ومضت خارجةً، غابت ساعةً، ثم عادت هي وطفلها الذي ألبسته جلباباً فضفاضاً وسترةً تشبه سترة أبيه، وقفت به عند رأس ميمون، وقالت:

- ها، ما رأيك في الريس الجديد يا عم؟

هز القرد رأسه في مكرٍ وتصنع الرضا، عادت المرأة تقول:

- يللا، ربنا معكما، أروح لأفراخى الصغيرة.

لفت على عقبيها، وخرجت.

***

لما ابتعدت المرأة، دار الولد في أرجاء المكان وتناول الرق المعلق على مسمارٍ، هزه، صلصلت صاجاته، فانتشى الولد، وراح يرقص رقصة العجوز، تقافز ونط نطاتٍ كثيرةً بارعةً، أعجبت القرد، ولما أصابه التعب، توقف يلتقط أنفاسه ويجفف عرقه، عندها اصطدمت يده بشيءٍ في جيب سترته الداخلي، مد يده وأخرجها، رأى القرد السكين الماضية في يده، ارتد للخلف خائفاً، انتظر أن يفعل الولد شيئاً يذكر بأبيه، لكنه ظل ساكناً يحملق في السكين والرق، ثم ألقى بها على الأرض وجلس على الحجر البارز يبكي.

نظر القرد فرأى الباب مفتوحاً بلا حسيبٍ أو رقيبٍ، اعتملت بداخله أفكار كثيرة، جاهد حتى أجبر قدميه على التخلص من روح العبد التي غرست فيه، خطا بصعوبةٍ نحو الباب المفتوح، كانت تلك أول مرةٍ يمشى حراً طليقاً منذ أن أخذ من بلاده بلا كف تجره أو تسحبه؛ حتى أصبح خارج الحجرة، وقف يتأمل المدينة التي تقبع بعيداً

أسفل التل وتلك السيارات التي تسرع؛ بدت له صغيرةً كأنها لعب أطفالٍ.

ظل واقفاً يفكر، حتى جاءته الفكرة، جحظت عيناه من روعتها، استدار عائداً للحجرة، وبدأ يقلع ثيابه، ثم خلع عن الولد الثياب التي يلبسها، واستبدل ثيابهما، وعندما وضع الطرطور فوق رأس الولد؛ أصبح مشهده رائعاً أمام عينيي القرد.

عند ذلك نزع القرد السلسلة عن عنقه، ولفها حول رقبة الولد، سحبه منها قائلاً:

- سبحان من سلط أبداناً على أبدان، هيا بنا، رزقي ورزقك على الله.

***

جاب بالولد دروب المدينة، وكلما انفسح أمامه ميدان توقف به، وعندما يتحلق الناس حولهما ليشهدوا هذه العجيبة الغريبة، يبدأ القرد عمله، يوقع على الرق بأصابعه بينما يرقص الولد رقصة العجوزأو ينام نومة العازب أو يعجن كما تعجن الفلاحة، ثم يزحف ليصور للناس كيف خرج الملك من مصر منكسراً ذليلاً.

كان نجاحهما مذهلاً، وما جمعاه في يومٍ لم يجمعه مأمون القرداتي في عشرة أيامٍ. وفي المساء عادا للمرأة متعبين مكدودين، استقبلتهما هاشةً باشةً، ثم إنها أجلست القرد على مقعدٍ قديمٍ، ومسحت جبينه بكفها، ولما أفرغ جيب جلبابه من النقود جحظت عينا المرأة، وانحنت تجمع النقود وتقبل يد القرد شاكرةً ممتنةً، ثم قامت واغترفت طبق طبيخ خضراواتٍ ووضعته أمامه، بينما جلس الولد عند قدميه يعبث بالسلسلة ويهز الرق في الهواء، والقرد يمسح على رأسه بكفه. نهضت المرأة وأحضرت كسرة خبزٍ جافةٍ وأعطتها للولد، فقرضها كالفأر في التذاذٍ ورمش بجفنيه سعيداً شاكراً راضياً.

بينما هما يأكلان، نهضت المرأة، وأحضرت طست الغسيل، وجلست إليه تغسل هدومها وهدومهما، راح جسدها وجاء، فانكشف ستر فخذيها، ورأى القرد لحم المرأة الأبيض، فاضطرب جسده، ورأت المرأة.... القرد الأحمر، فاضطربت مشاعرها.

غفا الولد وهو جالس، فنهضت المرأة عن غسيلها، وأنامت الطفل على الحصيرة التي تغطي أرض الغرفة، ثم قامت وأفرغت طست الغسيل وملأته ماءً نظيفاً فاتراً، وجلست تحمم القرد، دلكت له ظهره وساعديه وهو يئن منتشياً، جففت جسده كله، ومشطت شعره الكثيف، وهي تفعل مسته، فارتعد القرد، ابتسمت المرأة له وأمسكت بكفه، قالت:

- تعال.

***

في تلك الليلة بات القرد على السرير، وتبادل مع المرأة أشياءً كثيرةً: الدفء والنشوة ومباهج الجسد، وفكرت المرأة: (وما له القرد؟ أليس أفضل كثيراً من الرجل، روحه مرحة وبريئة، وشعره الكثيف يدفئني ويثير مشاعري، سأعرف كيف أجعل منه رجلاً مثل كل الرجال).

***

قالت له وهي تضع أمامه صحن الحساء:

- كل يا سيد الرجال حتى تشبع.

ولما شبع قالت له:

- أ تعرف ما الفرق بين الإنسان والقرد؟

هز القرد رأسه نفياً، قالت:

- الكلام، لا بد أن تنطق، إن لم تنطق ظللت قرداً في نظر الناس، هيا، قل (سو سو، نو نو)

بدأ القرد يلعب شدقيه محاولاً النطق حتى يئس؛ ويئست المرأة منه، وجلست مطرقةً، وبينما هي تفكر سمعت صوتاً يجيئها:

- لا تفكري، ولا تبتئسي.

اندهشت المرأة، انتابها رعب شديد وتراجعت للخلف، نظر القرد لها مبتسماً وقال:

- لاتخافي، فأنا الآن أعرف الكلام تماماً مثل بني الإنسان.

نهضت المرأة، هزت رأسها مراتٍ، ثم انحنت على القرد تقبله، قال لها وهو يبعدها بكفه:

- كفى، احضري لي جلباباً نظيفاً، لأخرج.

نطت المرأة وجرت لتحضر له جلباباً نظيفاً وسترةً جديدةً، وضعت عند قدميه خفين، دس قدميه فيهما ونهض ليخرج.

***

في ذلك المساء وفي كل المساءات التالية؛ جلس القرد في مجالس السمر على مصطبةٍ يتحلق الرجال حولها ليستمعوا إليه بإنصاتٍ شديدٍ واهتمامٍ بالغٍ وهو يتحدث إليهم في شؤونٍ كثيرةٍ ليس من بينها السياسة.

***

٢ـ الداعشي

١ . ليلة الأمس:

لم أنم، كان الجرح الصغير الذي أصبت به أثناء الغزو يؤلمني، ومع ذلك كان إيلامه محتملاً أمام الجرح الكبير الغائر في النفس من جراء ما جرى في القسمة، لقد شهد التوأم اللعين شحرام وشخرام أمام الأمير أنني لم أكن أقاتل قتال الراغب في نيل إحدى الحسنيين، وأنني كنت أتقى مواجهة الأعداء، كنت أعلم أن الأمير هو الذي أوعز إليهما بالشهادة ضدي وحين حاولت أن أظهراعتراضاً؛ لأنهم لم يعطوننا بنادق كالآخرين، أسكتتني نظرة الأمير القاسية وكلماته الحادة:

- إن من جاء هنا، جاء ليطلب الموت أولاً، لا ليطلب السلاح، هناك نقص في العدة، ونحن من يوزع الأدوار لا أنت.

كنت أعرف أن مزيداً من اللجج كافً لفصل رأسي عن جسدي، صمت وانصرفت أخذاً معي تلك المرأة العجوز المصيبة التي جاءت في قسمتي ونصيبي، امرأة سليطة اللسان شديدة الحماقة، ما إن أُعْطِيتْ لي حتى بدأ لسانها يرميني بأقذع الأوصاف:

- أنت يا جربوع.
- أنا؟!

- أهناك جربوع آخر غيرك؟ قم؛ ناولني كوباً من الماء.

كان على أن أحسن لها بحسب ما أوصى به الأمير. أمسكت نفسي عن أن أضربها ضربةً بسيفي البتار أطير بها رأسها، تمسكت بأسباب الصبر، قلت لها وأنا أناولها كوب الماء:

- صبراً أيتها الشمطاء صبراً، غداً أبيعك في سوق النخاسة.

ضحكت ولم تتوقف عن الضحك، كادت من فرط الضحك تشرق بالماء وهي تبتلعه، راحت في نوبة سعالٍ، ظننت معها أنها في النزع الأخير، لكنها توقفت عن السعال والضحك، وأرسلت سيلاً من السباب البذئ:

- أنت أيها الجربوع ستبيعني أنا؟ أنت يا ابن التي لو أغلقت دكانها لمت أنت وإخوتك جوعاً.

قلت أسألها:

- ألا تخشين غضبتي؟
- لا.
- ألا تخافين أن أضربك ضربةً تزهق روحك؟
- لا، لأنك إن تفعل تريحني من الألم الذي يكاد يقتلني، أ بعد ضياع الأهل والسكن حياة؟ عموماً ستكون أنت الخاسر.

مرةً أخرى؛ أمسكت نفسي بصعوبةٍ بالغةٍ عن ضربها حتى لا أفسد فيها شيئاً يبخس ثمنها، كنت مفلساً وضائعاً، تركت خلفي الأهل والعشيرة، وهججت من قلب الصحراء إلى هذه الواحات الخضر مأخوذاً بنداءاتٍ غامضةٍ، أن أموت كما يجب أن يكون الموت أو أحيا كما يجب أن تكون الحياة، لقد خدعت بما صوره لنا الأمير حين قال يدعونا:

- إن تقض تتل الشهادة، وإن تعش تر من الجواري والعبيد ما يغنيك عن الفاقة ومذلة السؤال.

يومها نشأ أمام عين خيالي عالم جديد، رأيتني اقتحم الجيوش طلباً للموت، فتكتب لي الحياة، بل تكتب عني الحكايا والقصائد، يطير صيتي ليطابق الآفاق، ويلقي اسمي بالرعب في قلب الأعداء، ثم أصعد في مراتب المجد درجةً إثر درجةٍ، وأنا أسوق طوابير من الأعبد والجواري لأبيعها في أسواق النخاسة.

لم أكن أدري أن خلف أسوار عالمي عالماً يديره أمراء غامضون آخرون لا نعرف عنهم شيئاً، وما نحن وأمراؤنا في ساحة الحرب سوى بيادق على رقعة شطرنج، يضحون بنا ليكسبوا الجولة، وإن الرفاق ليسوا رفاقاً بل وحوشاً والغةً، إن جاعت أكلت بعضها بعضاً.

أفقت من أفكاري على سيلٍ من سباب الحيزبون اللعينة، التي رزأت بها، ولما لم يعد في قوس الصبر عليها منزع؛ نهضت، وأحضرت شريطاً لاصقاً، وأوثقت يديها ورجليها وكممت فمها، هكذا استرحت من ثغائها، قلت ممنياً نفسي:

- غداً، إن غداً لناظره لقريب.

٢ . قبل أن نذهب إلى سوق النخاسة:

نهضت في الفجر، توضأت، وصليت، ثم انصرفت إليها، كانت نائمةً تحلم، اقتربت منها في حرصٍ، كانت ترسل سباباً متواصلاً، لمن يا ترى؟ لا أعرف، ربما كانت تتشاجر مع الشياطين التي تحيط بها.

فككت وثاق المرأة العجوز في حرصٍ، فنالني رشاش متطاير من سبابٍ مؤلمٍ نالت به أمي وأبي حتى آخر جدٍ لي، وكزتها بطرف قدمي، وقلت لها:

- انهضي أيتها اللعينة، واغتسلي.

رمتني بنظرةٍ من نارٍ، وقالت:

- اذهب أيها الجربوع الحافي، واحضر سطل الماء وطست الاغتسال.

وقبل أن انصرف، قالت:

- لا تنس يا عفن أن تحضر كوباً كبيراً لصب الماء.

عدت حاملاً عدة الاغتسال، أخذت أنزع عنها ثيابها، صرخت عندما شددت جلبابها القذر، إذ اشتبكت به سلسلة من معدنٍ رخيصٍ، تدلت منه أيقونة حديدية؛ عليها وجه رب مما تعبد من أرباب.

قلت في ازدراءٍ:

- أ تعبدين الأوثان؟

لم ترد جواباً.

أمسكت الأيقونة بكلتا يديها كأنها تحمل طفلاً صغيراً، قبلتها، وتركتها تتدلى على صدرها الأعجف.

واصلت نضو ثيابها، ولما أصبحت عاريةً تماماً أدركت أي مقلبٍ شربته، كان الشعر يتدلى من إبطيها ويتكاثف على عانتها، بينما تهدل لحم ساعديها، وارتجف ساقاها من البرد كأنها عنزة صغيرة، قلت في سري:

- إن بيعت بدينارين، أكون أنا الرابح.

وبينما كنت أصب الماء على جسدها الضامر النحيل كانت تغني، ولما أخذت أدعك جسدها بليفةٍ من النخيل، قرقعت بالضحك، وهي تقول:

- لا، لا تدغدغني أيها الجربوع.

قلت من عمق اليأس:

- اللهم إلهمني الصبر الجميل.

فقالت تدعو ربها:

- ليأخذك الرب أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، فيريحك مني ويريحني منك.

صرخت فيها:

- اخرسي.

صمتت، ثم انسابت على وجنتيها دمعتان، فأصابني حزن شديد مس أوتار قلبي، وجدت نفسي أكفكف دموعها بكم جلبابي الأبيض النظيف الذي ألبستها مثله، وجلسنا نأكل صامتين غارقين في أفكارنا.

٣ . في سوق النخاسة:

كان الجو صائفاً، وعلى الرغم من أن الوقت كان صباحاً إلا أن الشمس كانت ترسل أشعتها لظى يلسع قفاي، سحبت خلفي العجوز من الحبل الذي قيدت به يديها، بينما لم تكف عن البصق والشتم واللعن، مررت ببعض رفاقي، كانوا جالسين يتسامرون، رميت السلام عليهم، فتصايحوا هاتفين:

- هلا عيني، هلا أبو المعارك.

أحسست بهم يتهامسون ساخرين، قال واحد منهم سائلاً:

- أذاهب إلى السوق بهذه الحورية؟

هززت رأسي، قال:

- مربوحة، والله مربوحة.

لم أعبأ بسخريتهم، وواصلت سحب بهيمتي إلى السوق.

مررت بسقيفة الأمير، رأيته يجلس متربعاً على أريكةٍ كبيرةٍ عليها طنافس؛ تدلت منها شرابات حمراء وصفراء بديعة ورائعة، وفي الركن جلست أربعون جاريةً القرفصاء، كن صبياتٍ كالبدور، ترامى إلي نواحهن وزجر الأمير لهن.

ثم وقفت بسقيفة نائب الأمير أشاهد الركن الذي يقعى فيه أربعون شاباً، كانوا في مقتبل العمر، وجوههم كسيفة ورقابهم خفيضة ذليلة، ترامت إلي همساتهم، رأيت أحدهم يبكي وهو يلوح للعجوز، التي صرخت به:

- لا تبك، ولا تخف، سينقضي ذلك الكابوس يوماً.

صرخت فيها زجراً:

- اصمتي يا امرأة السوء.

ردت في عنفٍ:

- امرأة السوء هي أمك التي لم تحسن شيئاً غير ال.....

هممت أصفعها، لكن نظرة الأمير نحوي أوقفتني، ربت على كتفها وأنا أهمس:

- هانت وبانت.

وصلت إلى آخر سقيفة في السوق، سقيفة المقاطيع من أمثالي، هناك كانوا واقفين؛ وجوههم كالحة غاضبة تماماً كوجهي، انضممت إلى جوقة الغضب، وراقبت وجوه السبايا والأسرى الذين كانوا أسهماً في

قسمة الغنائم، نسوة هالكات بينهن والقبر خطوة أو خطوتان، ورجال هم بقايا رجالٍ، جثث حية جرت إلى السوق جراً أملاً في الخلاص منها.

جاء صاحب السقيفة وهتف بالسلام:

- السلام عليكم عباد الله الصالحون، السلام على أسود الجهاد وأصحاب السيوف والنجاد ومذلي أهل الكفر والعناد.

أنعشت كلماته الحارة الروح فينا، هتفنا:

السلام عليك أبو إيادٍ وعمادٍ وشدادٍ ورشادٍ.

واصل:

- الحال يا أولاد لم تعد هي الحال؛ بعد أن كثر السبايا والأسارى، والسوق شح فيه البيع والشراء.

سمعت همهماتٍ وغمغماتٍ، سكنت حين أشار بيده، ليواصل:

- النسبة مقطوعية؛ إن شاء الله ستكون الربع من ثمن كل رأسٍ يُبَاع.

تعالت الصيحات:

- كيف يا أبو إيادٍ، كيف؟

قال:

- هكذا رسم الأمير.

ألجم الأفواه ذكر الأمير، وانحنت الرؤوس، واصل:

- إليكم الطعام والماء القراح، فكلوا واشربوا وادعوا لي بالرحمة والمغفرة.

ثم اعتلي أريكةً كبيرةً عليها مثل ما للأمير من أبهةٍ وفخامة رياشٍ وطنافس لها شرابات حمراء وصفراء بديعة.

هرولنا نحو قصاع الطعام، كانت مملوءةً تمراً تسارعت إليه الأيدي الجائعة النهمة.

عندما امتلأت الكروش؛ انسل خدر ناعم مصحوب بإحساسٍ طيبٍ بالنعمة والهناء، عندها طاف بنا عجائز بنراجيل مدندشةٍ، تفوح منها رائحة التبغ الممزوج بزيت القنب الهندي الذي ارتفع أريجه إلى أنوفنا وسرى بالسطل في أدمغتنا، فارتفعت الضحكات مجلجلةً في أركان المكان، ثم جِيء لنا بأطباقٍ عليها فصوص طيبة من جني الخشخاش، التقطت فصاً منها، وضعته تحت لساني واستحلبته، فجرى عرق مر إلى ريقي عالجته بثمرة تمرٍ، وعاودت احتلابه، عندها سكن

قلبي الغاضب، ورأيت نفسي محاطاً بحورياتٍ رائعاتٍ؛ من أصواتهن انسابت أجمل الألحان في أرجاء المكان.

ثم دخل سقيفتنا ثلاثة أجلافٍ من أجلاف هذه البلاد، حيوا صاحب السقيفة وقبلوا يده، غمغم شاكراً، وهز رأسه راضياً، مال عليه واحد منهم وفتح خرجاً كان يحمله، وتهامسا للحظاتٍ، ثم نحا الرجل نحوي، نهضت من متكيئ مستبشراً آملاً، حياني، رددت عليه السلام، أمسك بفتاتي، رفع وجهها بإبهامه، وغمغم، ثم ضغط على وجنتيها بأصابعه، فانفتح فمها، قلت متابعاً:

- أسنانها موجودة.
- عالٍ عال.

أمسك بيدي، قال:

- معي زوج من أرانب الجبال.

فتح لي خرجه:

- أنظر.

لم أعتن حتى بالنظر، كنت قد علمت بحيلة هذا الجلف من رفيقٍ لي، إنه يأتي بذكور الأرانب الهالكة العجوز، ويقايضها بالجواري من

عجائز النساء، يأخذهن ليهلكهن في الزرع والقلع، أما أرانبه فلا تبلغ الانضاج أبداً، ولو ظلت في التنور ثلاثة أيامٍ.

قلت وأنا أتميز غيظاً:

- يفتح الله يا شيخنا، أنا أبيع بالدينار.
- لكن.....

قاطعته:

- ابتعد عني وإلا.
- ياعم بين البائع والشاري يفتح الله.
- نعم؛ يفتح الله، إذهب.

عكر ابن الحرام دمي، لكنني عالجت الأمر ببعض أنفاسٍ من نرجيلة أبي عماد، فمشى الكيف في أوصال جسدي وصعد إلى رأسي معربداً فيه، فأعادني إلى سابق هناءتي وسعدي، وأخذت أرقب البيع والشراء في سقائف الأمراء والوزراء، وبعد أن تتم الصفقات أرى الرجل الذي اشترى يمر ساحباً خلفه جاريةً أو جاريتين أو ثلاث جوارٍ طيباتٍ جميلاتٍ رائعاتٍ، يود المرء أن يصحبهن إلى جنة الخلد معه.

غير هؤلاء الأجلاف لم يجئ أحد إلى سقيفتنا، لذا لم يكن هناك بيع أو شراء، عموما ليس من المهم أن يكون هناك بيعٌ أو شراءٌ، لأن

كل شيءٍ بدا أمامي جميلاً رائعاً، أغمضت عيني، رأيتني أقود جيشاً جراراً، ومن حولي تعالت صيحات الضرب والطعان وصرخات الفرسان الذين كانوا يتهاوون تحت ضربات سيفي البتار، كل صوتٍ منها هو نغم عذب ينساب بي على ضفاف نهرٍ هادرٍ سيالٍ، وهذه الجثث الحية التي تفوح برائحة الموت ما عادت تبعث إلى إلا عبق عطرٍ نفاذٍ من روائح الجنة.

انقضى النهار وانفض السوق؛ ولم أبع أو أشتر، وجاء أبو إيادٍ وعمادٍ وشدادٍ ورشادٍ، وقال:

- مرحى أسود الجهاد أصحاب السيوف والنجاد ومذلو أهل الكفر والعناد، من لم يصبه حظ من بيعٍ أو شراءٍ في هذا السوق نتمنى له حظاً أوفر فيما هو قادم من أسواقٍ، والآن انتشروا.

انتشرنا غير غاضبين.

أما أنا فمشيت مأخوذاً بنداءتٍ آخرويةٍ، ورأيت سبيّ حلوةً جميلةً، سيكون لي معها الليلة شأن من شئون الغرام.

٤ . في الليل:

كانت حوريتي نائمةً على الأرض تتهارش مع الشياطين وترسل لها سباباً حاراً، وقفت أنظر إلى سحرها الطاغي وجمالها الفتان، فتشت في جيب قميصي، أخرجت فص أفيونٍ واستحلبته، فمشى بالخدر اللذيذ إلى أوصالي، رقدت بجانبها وأخذت أمسح شعرها بكفي في حنانٍ، تأوهت، فأطارت لبي، قبلتها،استدارت وقبلتني، أي رضابٍ حلوٍ انساب إلى فمي، نضونا ثيابنا وانصرفنا إلى أعمالنا، صعدنا معاً إلى سماواتٍ من اللذة المسروقة من الجنة، كم من الوقت مر بنا قبل أن نهبط ذاهلين عن الوجود من حولنا؟ لا أدري، أ ثانية؟ ربما، أو دقيقة؟ جائز، أم ساعة أو ساعتان؟ محتمل جداً، لقد سقط الزمن من عقلينا ومات عند سيقاننا.

عندما انتهينا، تحممنا معا، دغدغت بالليفة أجزاءها، تضاحكت وتلوت وهي تسبني:

- لا لا يا جربوع، لا.

قلت لها:

- اسمعي أيتها الحورية.

انتبهت، واصلت:

- سنهرب معا.

نظرت متعجبةً وهمست:

- نهرب؟! نعم؛ يجب أن نهرب.

لملمت حاجاتي القليلة، ودسست خنجراً بين ثيابي، أخذت يدها في يدي، ومضينا تحت جناح الظلمة نرتقي التل الذي يقع أسفله معسكرنا.

لما طال بنا المسير؛ جاءني صوتها اللاهث وهي ترسل لي بالسباب:

- أنت يا جربوع يا حافً، قل لي إلى أين المسير؟

سمعت صوتها كأغنيةٍ مصحوبةٍ بلحنٍ شجيٍ، وترنمت بكلماتها:

- قل لي إلى أين المسير في ظلمة الدرب العسير؟

بينما كانت أضواء الموصل تخفت شيئاً فشيئاً، حتى لفتنا ظلمة حالكة متمكنة، أدركت صوت أقدامٍ تهرول وهي تسعى خلفنا، ثم اندفعت من فوهات البنادق زخات متتالية، سمعت بالكاد صرختها الواهنة وهي تخر صريعةً، بينما واصلت العدو نحو المستحيل.

***

٥ . الهروب نحو المستحيل:

كنت أعدو بساقين سائبتين متدثراً بعباءة ليلٍ غميقٍ حالكٍ كأنه غول أسود يمسك بقبضتيه على خناق الدنيا، فيغيم الرؤى أمامي، ومن خلفي صدحت طلقات الرصاص.

الخوف وخدر الأفيون في جسدي جعلاني لا أدرك أن رصاصةً شقت حافةً من جنبي، وأسالت خيطاً رفيعاً من الدم؛ رسم خط هروبي، ما كنت لأقف، كنت أطوي المسافات طياً، حتى أيقنت تباعد أصوات المطاردين التي خفتت حتى تلاشت تماماً، لكنني ما توقفت لحظةً عن العدو مخترقاً ما جسّده الليل من أوهامٍ أو حقائق.

أبصرت من بعيدٍ كتلةً سوداء واحدةً تنتصب في الظلمة، لكن أي اختيارٍ أملك سوى الوصول إليها سواء أكانت ربوةً أو جيشاً أو حظيرة ماشيةٍ. لما اقتربت منها تبينت أنها غابة صغيرة من النخيل، دخلت فيها وواصلت الجري بين نخلاتها.

في منتصفها قبع دير صغير للنصارى، ربما لذلك السبب غاب عن أعين جماعتنا، توقفتُ على غير مبعدةٍ منه أفكر، حرت في أمري، ماذا لو أويت إليه؟ هل سيدخلونني؟

وقفت حائراً، ثم أحسست بانسحاب الخدر من جسمي وأوصالي، وانفجر بداخلي فيض من الألم، كأن ذئباً مسعوراً ينهش في جنبي، بل

إن قوتي نفسها بدأت تتهاوى، هالني مشهد الدم المنساب من جرحي، لابد أنني نزفت كثيراً، هويت على الأرض، ثم بدأت أزحف نحو البوابة، دققت بيدين واهنتين عليها، لعل أحداً يفتح، لكن ما من مجيبٍ، دققت دققت حتى وهنت قوتي، وغامت الرؤية أمام عيني، انطفأ وعي وغبت عن الوجود تماماً.

***

٦ . جاء الصباح:

عندما جاء الصباح أطلت شمس حانية، مشت بأناملها على وجهي، وداعبت أشعتها جفني، فتحت عيني، واعتدلت رغم الألم الذي يشق جنبي مسنداً ظهري إلى الباب الضخم، كانت قطرات الندى تتناثر على ملبسي ولحيتي، مشيت بيدي عليها، ومسحت وجهي لأزيل آثار النوم عني، وحين حاولت النهوض عضني الألم وغرس أنيابه في جسدي، صرخت صرخةً مدويةً أهاجت العصافير التي كانت تتبادل الأحاديث فوق شجرةٍ قريبةٍ من الباب.

ثم سمعت أصوات أقدامٍ تقترب، تحسست خنجري؛ واستعددت للدفاع عن نفسي متى استدعت الحاجة ذلك.

فُتِحَ الباب، رأيت رجلاً عجوزاً له لحية بيضاء سابغة، ارتمى ظله عليَّ، كان يقف ومن خلفه وقفت ثلاث من النسوة اللاتي يسميهن النصارى راهباتٍ، اقتربن بدورهن مني، قال العجوز:

- الله بالخير يا ولدي.

غمغمت ببعض كلماتٍ قبل أن أقول:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بينما وقفت الراهبات صامتاتٍ، انحنى الرجل عليّ، قال:

- أما تنهض يا ولدي؟

تحاملت لأقف؛ فانكشفت بقعة من دمي المتخثر؛ لوثت الأرض تحتي، قالت واحدة منهن لأكبرهن سناً:

- إنه ينزف.

أدركت أنني على حالةٍ من الضعف والوهن تجعلني بلا حيلةٍ أمامهم، ارتخت يدي عن خنجري، انحنين على، وتعاونَ على إقالتي، فغمت رائحة بخور اللبان الذي يعبق ثيابهن أنفي، أنهضنني، فتحاملت رغم الألم وتساندت عليهن، حملتني النسوة لغرفةٍ بجوار الباب، أرقدنني على سريرٍ من جريد النخل، وبدأن في كشف ثيابي عن جسدي بلا حياءٍ أو خشية، لله دري من هؤلاء الكافرات.

تشاورن فيما بينهن، وبدأن في تنظيف الجرح، صببن فوقه مطهراً أزهقت حرقته روحي، بينما أخرجت إحداهن أمبولين من صندوق الاسعافات ومزجتهما معا، ثم حقنتني بهذا المزيج، تراقصت أطيافهن للحظاتٍ أمام عيني قبل أن أغيب عن الوعي.

***

٧ . في المساء:

أفقت في المساء، وجدت نفسي في غرفةٍ تشبه الزنزانة، كنت أرقد على سريرٍ ،أدرت بصري في الغرفة لم أجد غيرمقعد ومنضدةٍ خشبيةٍ، وضعت في منتصف الغرفة، سمعت صوت أقدامٍ تقترب، بالغريزة عبثتُ بأصابعي بحثاً عن خنجري، فلم أجده، حاولت أن اعتدل في رقدتي، لكن ألماً قصياً مزق جنبي، فتصلبت على وضعيتي.

فُتِحَ الباب، وأطل منه وجه الراهبة العجوز، قالت:

- ها هو.

أطل من خلفها وجه رجلٍ له سمت طبيبٍ، وضع الحقيبة الصغيرة التي كان يمسك بها على المنضدة، اقترب مني وتفحصني، مد يده وأزاح الملاءة عن جسدي، وفحص بعنايةٍ جرحي، ضغط بأصابعه عليه، صرخت، قال:

- المقذوف مايزال يسكن جسده؛ لكنه قريب جداً، أكاد ألمسه بإصبعي.

استدار، والتقط حقيبته، وضعها على السرير، أخرج أمبول مخدرٍ وعباً محقناً، ثم حقن جوانب الجرح، واختبر أثر المخدر بأصابعه ليتأكد من سريانه في جسدي، لم أبد ألما، قال:

- عظيم جداً.

أخرج جفتاً ومبضعاً، وأعمل المبضع في الجرح، وسعه ودس الجفت فيه، التقط المقذوف وسحبه، ثم ألقاه في جفنةٍ صغيرةٍ من الخزف، وقال:

- حمداً لله على سلامتك.

طهر الجرح وبدأ في تقطيبه، وهو يصدر نصائحه لي مرةً وللراهبة مرةً أخرى:

- ستلزم الفراش أسبوعاً على الأكثر حتى يبل جرحك. (قال موجهاً شطره للأم العجوز) سأحقنه بمضادٍ حيوي قوي ممزوجاً بمسكنٍ للألم، وسأترك لك أن تحقنيه كل اثنتي عشرة ساعةً بالمضاد الحيوي، لا خطر عليه مطلقاً، يمكنه من الآن أن يأكل و يشرب ما يشاء.

ابتسم لي قبل أن ينصرف، غمغمت بكلماتٍ شاكرةٍ، خرج وتبعته الأم العجوز، التي عادت بعد قليلٍ ومعها طبق حساءٍ ساخنٍ وقطعة كبيرة من الخبز، وضعتها أمامي على المنضدة، ثم قفلت منصرفةً، وأغلقت الباب علي.

***

٨ . في المسافة بين الحقيقة والوهم:

أعرف جيداً أنهم سيجدون في أثري، فلست أول من يهرب، وحكم الهارب معروف ومقطوع به: القتل طبعاً، سواء أكان بالرصاص أثناء المطاردة أو الذبح إذا أمسك به، طردت هذه الأفكار عن رأسي، والتهمت قطعة الخبز وطبق الحساء.

أرخيت جفني على عيني، وشعرت براحةٍ كبيرةٍ، لا أدري أهي من أثر المخدر، أم إنها من ذلك الشعور الغامض بأن شيئاً جديداً يولد بداخلي، لقد تخلصت من أوهامي دفعةً واحدةً، تلك الأوهام التي كانت تضيق الدنيا أمام عيني وتجعلها جنةً أو ناراً، قارنت بين هذه الوجوه المفعمة بالطيبة والرحمة وتلك الوجوه الجهمة المسكونة بالغضب والقسوة لهؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بلدانٍ متفرقةٍ يحملون نفس الأوهام التي أحملها، كم كان حجم الوهم كبيراً، إنها المسافة بين روعة الحلم بتحقيق العدل على الأرض والوحشية التي تهدر ذلك القدر اليسير من العدل الذي تمكن بني البشر من إنجازه وقبول العيش في ظله، أملاً في غدٍ أفضل، الآن انكشف عني وعنهم الغطاء، أنا لست بمجاهدٍ و لا هم بمجاهدين، إنهم مجموعات من قطاع الطرق والمرتزقة وشذاذ الآفاق، ليذهب إذن الأمير ونائبه والموت والرفاق القتلة إلى الجحيم، لاخوف بعد اليوم، لا خوف من شيءٍ أبداً، حتى الموت نفسه صار لا يعني لي أي معنى.

٩ . رؤية:

أغمض عينيه وترك العنان لأفكاره، يكاد يرى بعين خياله ما حدث في ذلك الصباح، استدعى الأمير مفرزة المطاردين الذين لاحقوا ذلك الهارب، وقفوا أمامه أذلاء مطأطئ الرؤوس، دار في أنحاء خيمته يجز على أسنانه من الغل والغضب، قال:

- كيف تسنى له الهرب منكم أيها الأعيار السذج، كيف؟

صمتوا ولم يحروا جواباً، أوجعهم التأنيب، كانوا يعرفون أن أي هاربٍ يحمل معه من الأسرار عن خبايا المعسكر الكثير من المعلومات التي تهم الأعداء، ربما اشترى سلامته بها.

قال الأمير:

- ستنقبون الأرض عليه، خذوا ما يكفيكم من مؤنٍ وذخيرةٍ، لكن لا تعودوا من غيره حياً أو ميتاً.

قالوا في صوتٍ واحدٍ:

- سمعاً وطاعةً يا أمير.

ثم استداروا على أعقابهم منصرفين، تذكروا أن لكل واحدٍ منهم عند ذلك الأفعوانٍ رهينةً: ابناً أو زوجاً أو أخاً أو مرأةً، مشوا كاسفي البال غاضبين عازمين على صيد ذلك الهارب اللعين، قال واحد منهم:

- لم أكد أهنأ بهذه الفتاة البكر التي فضضتها منذ أيامٍ قليلةٍ.

وقال آخر:

- لماذا لا يختار من رجاله المقربين من يقوم بالمطاردة، لماذا تلقى على أعتاقنا كل المهام الصعبة والقذرة، إنهم يدعون إقامة العدل بيننا وإفشاء المساواة، بينما في حقيقة الأمر لم تختلف دنيانا عندهم عما عرفنا من ظلم وغبنٍ لدى الكفرة والمشركين.

قال ثالث:

- إن شئت الحق؛ الكفرة والمشركون أكثر رحمةً من حكامنا.

صاح فيهم الرابع:

- كفاكم لججاً، أمامنا مهمة لنقوم بها، ولنا عند العودة غانمين كلام آخر مع الأمير وغيره.

***

١٠ . المطاردة:

وقفوا فوق الربوة التي أطلقوا منها الرصاص عليه، ومدوا النظر يستطلعون الأرض من حولهم، تشاوروا فيما بينهم، وانتهوا إلى رأي قاطعٍ: لابد أن صاحبهم قد خطط من قبل للهرب.

إذن أي الاتجاهات سلك؟ محيط الصحراء حولهم واحد، لو أنه عدا إلى الشرق؛ لوصل إلى تلك القرية القابعة على مبعدة كيلومترات قليلةٍ، هذا هو الأرجح، أخذهم حدسهم الخادع إلى المسير نحو القرية، دخلوها عصراً، ذهبوا رأساً إلى بيت آمرها، نادوا عليه، فخرج مرتعباً، قال واحد منهم:

- نحن من تنظيم الدولة الذي بايعته، أو لم تفعل؟

قال الآمر:

- بلى، فعلت.

عاود الداعشي الكلام:

- ليلة أول الأمس هرب رجل من رجالنا، ألم يجئ إلى القرية؟
- لم يأت أحد هنا، لو جاء لكنت قد علمت بذلك، لي عيون هنا ههنا.
- جهز لنا مكاناً للمبيت.

- بيتي فيه متسع لكم.

***

في باكورة الصباح نهضوا، وعاودوا التشاور، قال واحد منهم:

- إن بي شكاً في كلامه.
- هل نأخذ الناس بالشبهة؟
- ولم لا؟ سوء الظن من حسن الفطن.
- وما ترى؟
- نعتصره هو وبعض أهل القرية، حينها سنعرف إن كان كاذباً أم صادقاً.

بعد أن تناولوا إفطارهم، ابتدأوا الحفل، أمسكوا بالآمر من قفاه وأنالوه عدة صفعاتٍ ثقال وركلاتٍ أثقل، وقالوا له:

- إسمع يا قواد؛ هذا الكلام لا يصير معنا، نحن نعلم علم اليقين أن الثرثار الهارب يختبئ في قريتك، ولا مفر من القبض عليه، خلص روحك.

لم يجد الآمر مفراً من أن يقدم لهم أسماء بعض رجال القرية ممن عرفوا بمواقفهم ضد داعش، اقتحموا بيوت الناس وفتشوها ضاربين عرض الحائط بحرمتها، ضربوا من شكوا فيه ضرباً مبرحاً، بل قتلوا

واحداً منهم ذبحاً أمام الأهالي الذين وقفوا يرتعدون من الرعب، ظلوا هكذا عدة أيامٍ حتى انقطع أملهم، وأيقنوا أن أحداً لا يعلم أين يختبئ ذلك الفار، فجلسوا للتشاور. الصحراء الشاسعة تقطع الغرب والجنوب عليه، والشرق فتشوه، لم يبق إلا الشمال، هنا طرقت الفكرة رأس أحدهم حتى جحظت عيناه، قال يشيربالسبابة:

- إنه الدير.

فغروا أفواههم دهشةً:

- الدير؟ معقول؟
- معقول جداً.

تجهزوا سريعاً للرحيل، ذهبوا تصحبهم لعنات الآمر والقرية.

***

١١ . محاورة:

قال له العجوز وهو يضع الطعام على المنضدة:

- اغتذ جيداً يا ولدي، حتى تستعيد ما نزفت من دماءٍ.

قال ثم سحب مقعداً، وجلس.

نظر إليه ثم خفض بصره، وأدار الملعقة في طبق الحساء أمامه، رفع وجهه، وسأل:

- قل لي يا عم، أ أنتم كافرون حقاً؟

أدهش السؤال العجوز، لكنه ابتسم في هدوءٍ، ثم قال:

- كلنا مؤمنون؛ نحن وأنتم، لكننا غير جديرين بالإيمان، لأننا لم نف الله حقه أبداً، ولم نؤد ما أوصى به أنبياؤه، فقط كنا نستبدل الأفعال بالكلام، أكثرنا قولاً أتقانا، وليس أكثرنا فعلاً، تأخذنا غرائزنا وشهواتنا إلى بعيدٍ، فننسى كل شيءٍ، وننصرف لإشباع هذه الغرائز، وعندما نفعل ذلك ندوس على كل مقدسٍ، نتخفى ونفعل الشر، ومادام أحداً لم يرنا فنحن أبرياء طاهرين.

عاود الداعشي السؤال:

- أقصد هل تؤمنون بالله؟
- نعم نؤمن بالله؛ لكن بما يدلنا عليه ديننا ومذهبنا.لكن ما أنا سوى رجلٍ بسيطٍ، لا أعرف ما الذي يجعلنا نحن وأنتم مختلفين، هذه المسائل المعقدة لا تشغلني، أظن أن ما يجمع بيننا أكثر بكثيرٍ مما يفرقنا.

ظل الداعشي صامتاً، وانصرف لطعامه، ولما انتهى رفع العجوز الأطباق جانباً، قال:

- دعني أرى جرحك.

رقد الداعشي، وكشف جنبه، تفحص العجوز الجرح، قال:

- آه، لقد التأم الجرح حتى يكاد لا يرى.

نهض الفتى وعدل من ثيابه، ثم نظر إلى أيقونة العذراء المعلقة على الحائط، سأل:

- من هذه؟
- إنها العذراء مريم.
- آه، مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها.
- هي تلك.

- أهي إحدى آلهتكم؟
- لا، ولكننا نبجلها لأنها أم عيسى.
- عليه السلام.

***

١٢. الرحيل:

شذب شعره، وحلق لحيته، وجمع حاجاته القليلة، واستعد للرحيل، بينما وقف الرجل العجوز والأم الراهبة، تراقصت في عينيه دمعات مكابرة، قال بصوتٍ مخنوقٍ:

- لا أعرف ماذا أقول لكما، الشكر وحده لا يكفيكما حقكما.

قال العجوز:

- قل لي إلى أين المسير؟
- سأرجع إلى بلدتي البعيدة، التي جئت منها محملاً بالأوهام، سأذهب لأنقذ أرواح شبابها من باعة الوهم الذين يدفعون الناس إلى الكراهية والقتل، سأقص عليهم ما رأيت من مهازل، وسأحكي لهم عنكم، أنتم أيها الطيبون الأبرار الذين لم تروا في عدواً، ولم تمنعوا عني دواءً أو غذاءً، لقد تعلمت الكثير عن معنى الحياة في الأشهر القليلة التي عشتها بين كتائب داعش ، كما تعلمت في الأيام القليلة التي عشتها معكم أشياء ومعاني لن أنساها ما عشت، قد عرفت الآن لماذا تضيق الأَرض بالبشر القادرين على كراهية وقتل الآخرين، ورسالتي الآن التي سأحملها لأبناء بلدتي هي أن في الأرض متسعاً للناس تحت مظلة الله، الذي لو شاء لجعل

الناس جميعا ملةً واحدةً وأمةً واحدةً، هذا ما ينص عليه القرآن الكريم ويأمر به ديننا. ألم يقل سبحانه تعالى في محكم آياته: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} صدق الله العظيم.

لم يكد يصدق، حتى سمع صوت أقدامٍ تهرول تصحبها أصوات تنادى وصرخات واجفة تستغيث، أطل العجوز من كوةٍ صغيرةٍ، رأى الدواعش قد أخرجوا الأخوات وأوقفوهن صفاً في حديقة الدير، وبدأوا يسألون:

- أين يا قحاب تخبئن الراجل الهارب؟

صمتن، تقدم واحد منهم، وأمسك بيد واحدةٍ من الراهبات، نزع غطاء رأسها، وجمع شعرها الذي انسدل في قبضته، أمال رقبتها للخلف، ولوح بخنجره في الهواء، وصاح:

- سأعلمكن ما هو ثمن الصمت.

هم يفعل، أوقفه صوت الأم الراهبة، قالت:

- انتظر أيها الداعشي، ما الذي ستفعل، أليست نفساً هذه التي ستزهقها؟

توقف الرجل، أربكته كلمات الأم الراهبة، ونظر إليها، ثم قال:

- أ أنت رئيس هذا المكان؟
- نعم أنا رئيسه، ما بك؟ عما تبحث؟
- أبحث عن رجلٍ هاربٍ من صفوفنا، ونحن نعلم جيداً أنه هنا.
- كان هنا، لكنه غادر.
- متى غادر؟

صمتت الأم العجوز ولم تجب، قال والشك يأخذ به:

- آه، مازال مختبئاً هنا في ركنٍ من الأركان.

التفت إلى رجاله، وقال:

- فتشوا المكان.

اقتحم الرجال المكان، قلبوا الأثاث وألقوا به على الأرض وعاثوا في أرجاء الدير تخريباً، الأمر الذي أثار حنق الراجل العجوز، واجههم غاضبا، وصاح مهدراً:

- ماذا تفعلون يا همج يا برابرة؟

لم يكد يكمل كلامه حتى نال طعنةً أودت بحياته.

***

١٣ . العَدْوُّ خلف المستحيل:

عندما تيقنوا من أن فتاهم غير موجودٍ خرجوا للخلاء يبحثون عنه، انطلقوا ككلاب الصيد في أثره، كان يعدو بلا توقفٍ نحو قرص شمسٍ ساطعةٍ قويةٍ حاملاً رسالته لأبناء بلدته البعيدة.

***

هكذا ظل لسنواتٍ يعدو في صحراءٍ مستحيلة الأبعاد أطرافها بلا نهايةٍ ومن خلفه جدت كلاب الدم تحاول اللحاق به، لكنها لم تدركه، ولا هو أدرك بلدته البعيدة، لكن حلماً ظل يراوده كل ليلةٍ: إنه إذا أصبح الصباح وجد نفسه يقف على مشارف قريته بأنفاسٍ مبهورةٍ، ثم ها هو يدخلها ويمشي في دروبها المتربة، ينتبه الناس إلى عودته، يخرج الأهل من بيوتهم يحملقون في ذلك العائد من الموت لأنهم ظنوا أنه لقي حتفه، الرجال يعانقونه والنساء يطلقن الزغاريد، يجتمع عليه أهل بلدته، وهو واقف في وسط دائرةٍ تحيط به، يقول لهم: إنه رأى بأم عينه المهزلة الدائرة هناك حيث تتجسم البشاعة والحماقة في رجالٍ أخباثٍ لا يتورعون عن ارتكاب كل الموبقات باسم الله والدين، يستعبدون الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ويطلقون غرائزهم لتنتهك حرماتٍ مصونة، وإنه جاء ليقول لهم إن قتلةً آخرين هنا بينهم، يزرعون الفتنة بين الناس ويدعون للكراهية والقتل المجاني، قال لهم كل ما أراد قوله ثم انحنى ليحييهم، غير أن كلاب الدم كانت قد لحقت به وأفرغت في جسده

رصاصات قاتلةٍ. رأى وهو يخر ساقطاً حوريةً آتيةً من خلف الغيم الذي ملأ السماء الغاضبة المرعدة، وقفت عند رأسه ملفوفةً بالسحر والجمال، أشرقت عيناها بالدموع، انحنت عليه ومست بأناملها جبينه الوضيئ وهي تنظر إليه في حنانٍ بالغٍ همست له:

- موعدنا الجنة ، سأنتظر مجيئك.

هم يشير لها أن تنتظرمعه، لكنها غابت وغاب طيفها من أمام ناظريه، وغامت الدنيا أمامه وانطفأ نورالحياة في عينيه، وحل صمت ليس كمثله صمت.

٣- ببغاء يقول الحقائق كما هي

١. مات القبطان منجد في أقصى أصقاع الأرض معدماً فقيراً بسبب كرمه وسخائه، اللذين دفعا به إلى حدود السفه، كان إذا ما توقف في ميناء؛ بعثر ما معه من نقودٍ في القصف واللهو وما تبقى وزعه على الفقراء والمتسولين طالباً فقط الدعاء له بغفران الذنوب.

***

ذات صباحٍ والسفينة راسيةً في أحد الموانىء لإصلاح عطلٍ وقع في محركٍ من المحركات؛ استيقظ بقلبٍ مكدودٍ منقبضٍ وروحٍ محزونٍ، وقف ينظر إلى صفاء السماء ويرقب البحر اللازوردي الساجي في هدوءٍ يوجس له بشيءٍ غامضٍ.

رأى نورساً يحوم حول السفينة، توقف للحظاتٍ قليلةٍ على إفريزها وتبادلا معه نظراتٍ سريعةٍ موحيةٍ كأنه جاء ليودعه، صاح الطائرصيحةً واحدةً ثم ضرب الهواء بجناحيه وطار محلقاً مبتعداً.

بعدها اجتاحه تعب شديد وسقط مغشياً عليه، حمله بعض البحارة إلى غرفته.

هناك، عُلِقَ قفص فيه (طقطق) ببغاؤه الحبيب، سأله:

- ما لك يا معلم ؟

نظر له منجد نظرةً طويلةً حزينةً، وقال:

- سنلتقي يوماً يا طقطق، سنلتقي في سفينةٍ كبيرةٍ واحدةٍ تحمل كل الأرواح وتعبر بها بحاراً رائعةً زرقاء غميقة الزرقة لتصل بنا إلى الجنة.

ترقرقت دمعة كبيرة في عيني منجد وسالت على وجنتيه، صمت وأدار وجهه ليخفي عبراته، التزم طقطق الصمت، وأمسك لسانه احتراماً لمرض سيده.

ثم جاء (جمل) صفي منجد ورفيق أيامه الغالي، جلس بجانبه ومس بكف يده جبهته، أدرك أن حمى خبيثةً ترعي في جسد صديقه، قام وأحضر خلاً وقطناً وأخذ يضع قطع القطن المبلول بالخل على جبهته ليخفف من السخونة، انتظر حتى امتصت الكمادات قدراً كبيراً منها، وعندما رأى النوم يثقل جفني منجد أحكم الأغطية حوله، تركه لينام ومضى آملا أن يتحسن.

في المساء عاده ليطمئن عليه، رآه في حالةٍ أفضل فانتعش فيه الأمل، طلب منه منجد ورقةً وقلما وكتب وصيةً صَغيرةً بأصابع مرتعشةٍ متهملةٍ، ثم مد يده بها إلى جمل وهو يقول:

- إن قضيت يا جمل أوصل هذه الوصية لأمي.

كانت هذه آخر كلماته، لأنه حين رفع جمل وجهه ليقول له:

- بعداً للشر عنك يا أخي.

رآه فاتحاً فمه وعينيه وابتسامة ساخرة ترتسم على وجهه.

اقترب منه وهزه، فلم يستجب، أدرك أنه رحل عن عالمنا فأسبل جفنيه وأغلق فمه وانكفأ فوقه يبكي.

***

مات إذن ولم يترك خلفه شيئاً إلا أماً عجوزاً وببغاءه الناطق، كان ذلك الببغاء سميره في ليالي الوحدة والاغتراب التي عاشها وهو يجوب بحار الأرض.

بعد رحيل منجد حمل مساعده وابن جلدته (جمل) الببغاء، وعاد به إلى البلاد ليسلمه لأم منجد، كما تقضي الوصية التي كتب فيها:

(وداعاً يا أم، وداعاً حاراً لم أستطع أن أبثه لك عن قربٍ، عشت كما أردت تماماً وسأموت راضياً، وصيتي هذه يحملها لك جمل مساعدي وسندي، إنني أهديك ببغاءي الحبيب (طقطق) هو كائن

طيب، غير أن صراحته المفرطة سببت لي كثيراً من الحرج، لكن ثقي أنه خفيف الظل ومرح ومسل، اعتني به إكراماً لذكراي)

***

قال طقطق سائلاً جمل:

- قل لي يا حمل..

صاح جمل:

- قلت لك خمسين مرةً اسمي (جمل وليس حمل)
- ما عليك يا عم؛ جملٌ من حملٍ الفرق نقطةً صغيرةً.

صمت جمل مغتاظاً، وعاد الببغاء يسأل:

- لماذا مات منجد؟
- يا مثبت العقل أعني على ما ابتليت به، يا ابني هذا أمر طبيعي.
- يا عم قدر أنني ببغاء غرير.

قال جمل وصبره يكاد ينفد:

- مات منجد، مات فقط، مات كما يموت الآف من البشر كل يومٍ.

صمت الببغاء، ثم بدأ في الغناء:

- يا عطارين قولوا لي الصبر واين أراضيه.

***

٢. بعدها بأيامٍ وصل جمل إلى بيت أم القبطان منجد منهكاً حاملاً معه وصية القبطان وقفصاً وضع به طقطق الذي كان لا يني يصيح: أنت يا مغفل، أنت. هههههه.

دق جمل الباب، فسمع صوت العجوز المتصابية يقول في دلالٍ:

- من ببابنا جاء ليتفرج على حسن جمالنا؟

قال طقطق:

- أنا يا خالة.

قالت وهي تفتح الباب:

- خالة؟! تخلخلت ركبك، يا قليل الذوق والأدب.

ثم نظرت للرجل الواقف في شكٍ، وسألت:

- من أنت؟

- أنا جمل.

تعجبت المرأة جداً، وضربت كفاً بكف وهي تتساءل متعجبةً:

- أنت جمل؟! كيف؟
- اسمي جمل.
- آه، اسمك جمل، لكن أنت إنسان طبيعي، غريبة هي الحياة !
- أنا صديق القبطان منجد، جئت حاملاً وصيته؛ رحمه الله.

للحظةٍ ارتجت الدنيا أمام عينيها؛ وبدا وجهها بائساً حزيناً، وسألت في همسٍ:

- هل مات منجد؟
- رحمه الله.
- تفضل بالدخول.

قال لها جمل:

- منجد مات بحمى مفاجئةٍ غامضةٍ ودفن في البحر بحسب وصيته، وأوصاني أن أعطيك هذا الببغاء، وهو يوصيك به خيراً، لقد كان أنيسه وجليسه في ليالي غربته.

نظرت المرأة للببغاء في قرفٍ، وقالت:

- هات يا أخي، أهذا ما جلب الغراب لأمه؟

نهض جمل مستأذنا منصرفاً؛ والمرأة تغلق الباب خلفه كان طقطق يصيح ويغني:

- خالة ياخالة، يا أم البنات، وخالتك وخالتي، وفرقوا الخالات، هههيه.

التفت له المرأة، وقالت له:

- أنت؛ أيها المخلوق الأشوه، انتبه جيداً، أنا لا ينفع ولا يشفع معي إلا الأدب.

انكمش طقطق أمام نظرة المرأة المتوعدة، وجلس يقزقز بذور عباد الشمس ويلفظ قشورها في الهواء، حتى امتلأت الأرض من تحته.

بينما كان يفعل ذلك جلست المرأة المتصابية إلى الهاتف، أمسكت السماعة بيدٍ وبالأخرى داعبت خصلات شعرها المصبوغ بالحناء، وهي تهمس:

- عندي كم سنة؟ قل أنت.

- خمس وعشرون سنةً؟ لا، أكبر قليلاً، كم؟

.....

- سبع وعشرون سنةً؟ لا، أصغر قليلاً، ها، كم؟

.....

- آه، ست وعشرون سنةً، حقيقي أنت في منتهى الذكاء، كيف عرفت؟

.....

- نعم، زوجي مسافر، يعمل قبطانا في البحار البعيدة يا سيدي.

هنا؛ لم يطق طقطق صبراً، هتف:

- لا تصدقها، إنها في السبعين شتاءً،هههيه، خالة يا خالة.

في سورةٍ من الغضب وضعت سماعة الهاتف في حنقٍ ونهضت لتهز قفص طقطقٍ هزاً عنيفاً، قلبت مسقاة الماء عليه، ابتل ريشه وارتجف من الخوف أكثر مما ارتعش من البرد، قالت:

- يا أوسخ الببغاوات؛ وأعفن الكائنات، أ تنتوي أن تقرفني في حياتي؟

خرجت المرأة من شقتها، ودقت باب شقة جارها العجوز (بحبح) الذي فتح وهو يمسح العماش عن عينيه بكف يده ويعدل طرطوره بالأخرى، قال لما رآها:

- يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم يا رب، نعم، يا زهرة الصباح والمساء؟

أصابها الثناء بالخجل، همست في دلعٍ:

- تعال يا بحبوح، لترى حلاً في المصيبة التي حطت علي.
- مصيبة؟! كفانا الله الشر.

مضى معها إلى شقتها، فتحت الباب وقالت:

- تفضل بالدخول يا بحبح.

لم يضع طقطق وقته، نفض الماء عن ريشه وأخذ يضحك ويصفق بجناحيه ويدندن مستهزئاً:

- بحبح يا بحبح يا أبو طاقية.

تعجب بحبح جداً، وسأل:

- من أين يأتي هذا الصوت أيتها الفتاة الرشيقة؟

قالت المرأة وهي تكظم غيظها:

- من المصيبة الببغاء المعلق فوقك.

لم يستطع بحبح أن يرفع رأسه لأنه كان يعاني من التهاب الفقرات العنقية، لكنه سأل:

- من الذي جاءك بهذه المصيبة؟
- جاءتني ورثاً من المرحوم منجد.

هتف بحبح متألماً منكراً:

- أ مات منجد؟

وأخذ يعيط مثل جحشٍ صغيرٍ فقد أثر أمه.

ربتت المرأة على كتفه، وهي تعزيه:

- البقاء لله وحده يا بحبح.

لكن الرجل اندفع في بكاءٍ مر، وقال من بين دموعه:

- منجد ابني، ربيته على يديي هاتين.

صمتت المرأة، وحارت في أمرها حيناً، ثم صرخت فيه:

- كفى بكاءً وعويلا، الله يرحمه، الوقت وقت المصيبة المعلقة فوق دماغي.
- مصيبة؟!

الببغاء يا أخ.

- ما له الببغاء؟
- قليل الأدب والذوق والتربية، منذ أن علقته وهو لايكف عن الشتم والسخرية.

قال بحبح للببغاء وهو يجهد كي يرفع رأسه نحوه:

- كن مؤدباً يا ولد.

اندفع الببغاء يغني:

- بحبح يا بحبحء يا أبو طاقية...

ثم مضغ عدة كلماتٍ وقال:... طرية.

قالت المرأة:

- أ رأيت بعينك وسمعت بأذنك، من الضروري يا بحبح أن تأخذه وتبيعه وتخلصني منه.

***

خرج بحبح حاملاً القفص؛ وطقطق يسأله:

- خال بحبح، أ نذهب معاً في رحلةٍ؟

لم يعره بحبح انتباهاً، حتى وصل به إلى محل (محمد عصفورة) لبيع طيورالزينة، قال له:

- أ تشتري ببغاء ناطقاً؟

فحص التاجر الرجل كما فحص الببغاء، وأدرك من عصبية الرجل أنه يروم خلاصاً من ذلك الكائن، قال:

- ليس لنا بمثل هذه الطيوراشتغال.

قال بحبح:

- لماذا؟
- مقعدته ثقيلة في البيع.

رد طقطق:

- مقعدتك أنت أثقل، ههه.

تميز الرجلان من الغيظ، ثم قال التاجر:

- يبدو أنه سليط اللسان.

قال طقطق:

- أبوك قفل الدكان، ههه.

آثرا كلاهما الصبر، فصبرا واحتسبا على هذا الحيوان المسحوب من لسانه، وواصلا الأخذ والعطاء، حتى كسرعصفورة بحبح وعناده، وجعله يقبل بيع الببغاء بثمنٍ بخسٍ، بعدها شالا يديهما وتصافحا، واستلم عصفورة الببغاء من بحبح، الذي ما إن هم ينصرف، حتى أنشد طقطق:

- شروني بخساً بلا ثمنٍ، وأي ببغاءٍ باعوا

فيا رب كل من باعني تنقطع ذراعه.

***

٣. لما انصرف بحبح، أخرج عصفورة الببغاء وأمسك بسكينٍ ماضيةٍ في يده، وقال له:

- أ تعرف لما اشتريتك؟ هه؟ لأن طعم حسائك الممزوج بالمسك مقطوع بفائدته في كتب الطبيخ، كما إن طعم الملوخية بحسائك اللذيد سيكون هائلاً، توكلنا على الله ليصبرك على ما ابتلاك، بسم الله.

ارتعد جسد طقطق، لكنه لم يبد خوفه، قال لعصفورة:

- أنت كذاب وشرير، وأنا لا أخاف الموت.

ارتخت يد عصفورة، وقال هامساً:

- من أي مصيبةٍ جئتني أيها الملعون؟

***

ملأ طقطق المحل صخباً، وشاغب زبائن المحل وأضجرهم، وغازل البنات والببغاوات الإناث، ولم يني يصيح ويصفر لهن:

- أنت يا قمر ليلي وظل نهاري، الله الله، إلعب إلعب إلعب.

ثار عليه عصفورة، ومرةً أخرى أحضر السكين، مهدداً متوعداً:

- اسمع، أنا لا يصير علي هذا الكلام، لابد عن ذبحك وفصل رأسك عن جسمك.

أدرك طقطق أن عصفورة فاض به الكيل، وهمس لنفسه:

(مجنون ويعملها يا ولد يا طقطق)، قال مناوراً:

- ما الذي يريحك ونتفق؟

- نعم، نتفق، ما يريحني أن تبقى صامتاً مهذباً مؤدباً أمام الزبائن، حتى يجيئ لك تصريف وأبيعك وتغور بعيداً عن هنا.

وضع طقطق جناحه على منقاره معلناً الصمت.

سأله عصفورة:

- أ تأكل؟
- لا، نفسي صدت عن الأكل، سيبني في حالي، الله يحفظك.

هكذا صمت كلاهما، عصفورة انصرف إلى أعمال نظافة الدكان، واستغرق طقطق في ذكريات البحار البعيدة مع منجد.

***

٤. كانت سوسو (مائسة بنت خائشةٍ سابقاً) كما يقولون: فتاة ليلٍ، راجت تجارتها في الآونة الأخيرة رواجاً كبيراً، فاستقلت بأعمالها عن معلمتها القاسية (جلمهار بنت الأصول) واشترت شقةً في حي يعتبر (يعني) راقياً، ولما انتهت من أعمال الديكور عَنَّ لها أن تزين الممر الذي يفضي إلى داخل الشقة ببيغاءٍ ناطقٍ، يستقبل الضيوف، يحييهم ويدهشهم بنكاته وخفة دمه، وساقها حظها العاثر إلى محل

(عصفورة) هناك رأت طقطق صامتاً مؤدباً، خافت أن يكون أبكم:

- أخاف أن يكون أخرس.

قال لها عصفورة متعجباً:

- أخرس؟! إن بمنقاره عشرةً يتكلمون، أرها يا طقطق.
- أمر مولانا ملك الطيور والعصافير، ما اسمك يا حلوة؟

ابتسمت مائسة، وقالت في دلال:

- مائسة.

غنى لها طقطق:

- يا مائسة،

العاشقون ذابوا في حسنك القتال الشعر ليل والخصر خصر غزال

ثم أطلق زغرودةً رنت في جنبات المكان.

انتشت سوسو من الغزل وضحكت، وانتهز عصفورة اللحظة، وجعلها تدفع فوق الثمن ثمنين وهي مسرورة راضية.

***

مضت سوسو من محل عصفورة سعيدةً فرحانةً، وغنت وهي تقود سيارتها:

- البوسطجية اشتكوا من كثرة مراسيلي.....

وغنى معها طقطق:

- وعيوني لما بكوا بكت مناديلي، الله يا ست، الله.

***

ما إن وصلت سوسو إلى شقتها، حتى علقت قفص طقطق في الممر وهي تغني، وهو يغازلها:

- غزال وحياة قلبي، غزال.

فضت كيس اللب، ملأت أكالته، وصبت له الماء في المسقاة، وانصرفت إلى أعمالها، أجرت عدة مكالماتٍ هاتفيةٍ، أما طقطق فأكل وشرب ولما امتلأت معدته نام نوماً عميقاً.

***

صحا طقطق من نومه مفزوعاً، كان جرس الباب لا يكف عن الرنين، كذلك نهضت سوسو، قالت وهي تفتح الباب:

- يبيبه، اصبر يا أخي.

رأى طقطق، وهو ينفض النوم عن ريشه بمنقاره . شهما فارع الطول عريض المنكبين، لف ذراعاً مثل نير الثيران حول خصر سوسو، ومال عليها ليقبلها، صاح طقطق:

- الله الله، والله، عال عال يا ست سوسو.

قالت سوسو له وهي تضحك:

- ما لك يا طقطق؟ أ تغار علي يا تحفة؟

صمت طقطق وهو يتميز غيظاً، ثم بدأ يهزج:

- إلعب يا لعب إلعب.

ضحكت سوسو، وأخذت يد الرجل؛ دخلت به حتى اختفيا عن ناظري طقطق، غابا ساعةً وعادا معا، فتحت له سوسو الباب مودعةً، هنا صاح طقطق:

- مع السلامة يا قفا.

وقف الرجل مذهولاً، ونظر في استياءٍ إلى سوسو التي حبست أنفاسها، ثم مضى وهو ينفخ من الغيظ، بينما تطارده عبارات طقطق المنغومة:

- قفا، يا قفا، أنت يا قفا.

قالت سوسو:

- نهارك أسود، تواً جاء خيرك يا أبشع الببغاوات.

لم يعبأ بها طقطق، وانصرف إلى قزقزة لب عباد الشمس وبصق قشوره في الهواء وهو يغني:

- البوسطجية اشتكوا من كثرة مراسيلي.

***

ساعةً، قل ساعتين، ودق جرس الباب، فتحت سوسو الباب، كان عند الباب رجل يلبس جبةً وقفطانا وعلى رأسه عمامة، قالت سوسو:

- أهلاً، أهلاً وسهلاً سعادة العمدة.

هنا صاح طقطق:

- العمدة من يومه معلم وستان قفطانه مقلم

ضحكت سوسو وضحك العمدة، أخذته من يده، وغابا ساعةً، ثم عادت معه لتفتح له الباب وتودعه، هنا زاط طقطق، وبدأ ينشد:

- مع السلامة، يا قفة لها أذنان.

صفعت الكلمات العمدة صفعاً، فارتبك، وانسحب في حرجٍ بالغٍ.

بعد أن أغلقت سوسو الباب؛ وقفت تنظر لطقطق وهي تضع يدها في خاصرتها، قالت:

- إسمع يا طقطق، أنا لن أسكت على ما تفعله هنا طويلاً، انتبه لنفسك.

رد طقطق:

- بل اسمعي أنت يا سوسو، أنا لا يمكن أن أكون مقطفاً أبداً.

سكتت سوسو وهي تتميز من الغيظ ومضت عنه لتأوى إلى فراشها مجهدةً كظيمة مغيظةً، فالثمن الذي دفعته مقابل ذلك الببغاء الداهية ليس قليلاً، على ذلك نامت ليلتها وهي تسر في نفسها شيئاً.

***

في اليوم التالي، صحت من نومها متأخرةً، يمسك برأسها صداع قاسٍ، تحممت وتناولت إفطاراً خفيفاً وفنجانا كبيراً من القهوة، جاءها غناء طقطق:

- بلبل حيران.

احتارت: أ تضحك أم تبكي؟ وقفت بين بين، هاتفت صديقةً لها، وأخبرتها بما كان من أمر ذلك الببغاء، فقالت لها الصديقة:

- يا أختي، أ أنت عبيطة؟ تخلصي منه وإرجعيه ليذهب في ستين داهية.
- سأرى، ربنا يسهل.

ثم رن جرس الباب، كان الطارق رجلاً عجوزاً، عندما رآه طقطق راح في نوبة ضحك كادت تزهق روحه.

أحس الرجل بسخرية الببغاء اللعين منه، فارتفع ضغط دمه وزاد منسوب السكرفي جسمه، وبدلاً من قضاء وقتٍ طيبٍ في الملاعبة والمداعبة، كاد روحه يفارقه،واضطرت سوسو أن تطببه وجسدها يرتعش، دلكت له صدره وسقته كوبين من الكركدية، وانتظرت أن ينفخ المولى فيه روحاً، أبداً لم يحدث، خاب مسعاها ومسعاه، عندها نهض الرجل كسيف البال مكسور الخاطر ليمضي، هنا أدرك طقطق مدي الجرم الذي اجتناه، وأخذته نفحة من شهامةٍ، فسكت ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ.

لكن سوسو ما كانت ولا بقيت لتسكت، ارتدت ثيابها، وانتزعت طقطق والقفص، نزلت إلى مرآب البناية، وقادت سيارتها إلى محل عصفورة، الذي ما إن وقفت السيارة أمامه حتى أدرك من مشهد

سوسو أن ذلك الببغاء ارتكب من الفضائح ما يكفي لإعادته غير مأسوف عليه.

قال عصفورة في برودٍ وسماجةٍ:

- أهلاً، أهلاً يا حلوة الحلوات وست البنات.
- لا أهلاً ولا سهلاً، ارتأيّ لك حلاً في المصيبة التي رزأتني بها.
- من؟ طقطق؟ معقول؟ إنه ملاك في ثوب ببغاء.
- نعم ملاك؟! ملاك إذا كان للشر ملائكة.

حكت له ما حدث، قال وهو يهرش ذقنه غيظا:

- طيب، إتركيه لي ساعتين، أصلحه لك وأضبطه.
- تصلحه لي وتضبطه؟! أهو ساعة؟
- طبعاً، مثله مثل الساعة، نحن نمتلك خبرة سنين في ذلك، سترين ذلك بنفسك.

أثرت سوسو الصبر، فطقطق وإن كان سافلا، لكنه تحفة نادرة، ولسانه عجيب لم تر مثله، قالت:

- وإن لم ينصلح حاله؟
- تعالي، إعيديه وخذي فلوسك.

- اتفقنا، ساعتان؟
- لا أكثر.

ما إن مضت سوسو، حتى انفرد عصفورة بطقطق، قال متوعداً:

- تعال يا سبة في حق الببغاوات.
- لا تشتم يا صاحبي.
- صاحبك؟ !

أمسك به من جناحه وبدأ يجذب ريشه، قال:

- سأجعلك أضحوكةً للطيور.

صرخ طقطق من الألم وبكى من الذل، فكلاهما كان يدرك أن طائراً بلا ريشٍ مثل ملك بلا تاجٍ على رأسه.

سأل عصفورة:

- ها، نعقل ونصلح من أخلاقنا، أم أكمل؟
- يا عم، إسمع.

حكى طقطق لعصفورة ما كان من أمره مع تلك المرأة، ومرة أخرى هرش عصفورة ذقنه ثم قال:

- يا بني ببغاء إفهم، الرجل الأول كان زوجها.

- طيب جداً، والثاني؟
- الثاني أخوها.
- طيب طيب، والثالث؟
- الثالث؟! لا يحتاج لكلام، إنه أبوها.

صاح طقطق بلهجة مسرحية:

- آه، هكذا وضحت أبعاد المسائل وزالت الغشاوة عن عيني، فيا للمرأة البريئة! وأنا الذي ظننت بها الظنون.

قال عصفورة :

- يا مسكين، لا تبكت نفسك يا طقطق هكذا، فالتبكيت يضر بصحتك، كلنا نخطئ ونصيب، لكن قل لي الآن من هم زائروها؟
- بلا شكٍ يا رجل، إنهم زوجها وأخوها وأبوها.
- تمام، أريد أن تردد ذلك حتى لا تنسى.
- زوجها أخوها أبوها، زوجها أخوها أبوها، زوجها أخوها أبوها، زوجها.....
- كفى.
- زوجها، أخ...
- قلت كفى.

وضع طقطق جناحه على منقاره وصمت.

***

في المساء عادت سوسو إلى محل عصفورة، استقبلها طقطق بزغرودةٍ وتحيةٍ:

- أهلاً أهلاً، يا حلوة الحلوات.

ابتسمت، وسألت عصفورة:

- أ ضبطته؟
- كما يجب أن يكون الضبط والربط، تريدين التأكد طبعاً؟ اسمعي:

من ضيوف سوسو يا طقطق؟

ردد طقطق وكرر مرتين وهو يحصي الأسماء على جناحيه:

- زوجها أخوها أبوها.
- تمام؟
- مضبوط جداً، شكراً جزيلاً، يللا يا طقطق.

صاح طقطق وغنى:

- يللا بنا، يللا يللا، الشموسة هلت هلت، وتنادي علينا.

***

٥. **ثم.... ثم رن جرس الباب، ومشت سوسو لتفتحه، استقبلت الشهم الضخم الجثة بترحابٍ ووجهٍ بشوشٍ، لكن الرجل ما إن أبصر طقطق حتى طقت عيناه شرراً بعث بالخوف في قلبه، قال بصوتٍ خافت:**

- يا مرحباً يا مرحبا، زوجها يا جدعان، أهلاً وسهلاً.

ابتسم الرجل وقرقع بالضحك، أخذت سوسو يده ومضيا بعيداً جداً.

***

وبعد حين، والرجل يهم بالخروج عزف له طقطق السلام الجمهوري مصحوبا بنداءٍ عال:

- زوجها.

***

هكذا مر العمدة تحت مارش عزفه له طقطق صائحاً:

- أخوها، فيا مرحبا بمن هبا ومن دبَّ.

ومن بعده مر الرجل العجوز الذي حياه طقطق:

- أبوها، مع السلامة يا حاج، ربنا يستر طريقك.

***

الطامة كانت حين جاء شاب رائع له شعر جعد وبشرة يزينها نمش خفيف وعود صلب فارع، ارتبك طقطق لمرآه، وأخذ يراجع ذاكرته، فلم يجد للشاب مكانا فيها، سأل في براءةٍ:

- من هذا القفا يا لعب اللعب؟

جن جنون سوسو، وقبل أن تبدأ أعمالها أقسمت أن تعيده إلى عصفورة مصحوباً بألف لعنةٍ.

هكذا عاد طقطق إلى محل عصفورة الذي جلس يشحذ السكين ويختبر مضاءها بحجر إبهامه، وطقطق يكاد يبول على نفسه، همس:

- بس بس، عصفورة يا عصفورة.

ظل عصفورة غير عابئ به، ولما انتهى من شحذ سلاحه، نهض وهو يستعين على الشقاء بالله(توكلنا على الله)وما إن فتح عصفورة باب القفص ليلتقط طقطق حتى توقفت سيارة سوداء فارهة، كتب على لوحتها(هيئة خاصة)نزل منها شخص أقرب شبها إلى الثيران منه إلى

بنـي الإنسـان، أدار بصـره داخـل المحـل، ولمـا وقعـت عينـاه علـى عصفورة، صرخ مهدراً:

- أنتَ.

ارتجف عصفورة، وقال:

- أنا؟
- نعم أنـت، مطلـوب علـى وجـه السـرعة ببغـاء نـاطق لقصـر الرئاسة، لأن رئيساً لدولةٍ من الدول التي تكثر فيها مثل هذه الكائنات سيحل ضيفاً على رئيسنا المحبوب شحاتة.

للمرة الثلاثة حك عصفورة ذقنه، وهز رأسه مراتٍ رافضاً ما سولت به نفسه، قال الثور:

- ما لك؟
- في الصراحة . ولا شك . راحة عظيمة، الببغاء الموجود هنا ببغاء سليط اللسان.
- نحن نعرف كيف نلزمه الأدب، دعنى أراه.

أشار عصفورة إلى طقطق والدمعة تكاد تفر من عينه، مد الرجل يده وقبض بأصابعه على رقبة طقطق، وسأل:

- ما اسمك يا عصفور؟

حشرج طقطق حشرجة الموت، ونظر بعينين جاحظتين إلى عصفورة، الذي مد يده برفق إلى يد الثور، وقال له:

- خفف عنه قبضتك، حتى لا يموت في يدك.

قال طقطق:

- الحمد لله.

ضحك الثور كثيراً، وقال لمساعده:

- أرأيت يا مغفل كيف جعلت هذا العصفور ينطق.

ثم سأل عصفورة:

- كم ثمن هذا الحيوان؟

تلك المرة باع عصفورة طقطق بسعرٍ يقل عما اشتراه به من بحبح.

***

٦. حُمِلَ طقطق إلى قصر الرئاسة، ووضع قفصه في مكتب الرئيس شحاتة حبيب القلوب ومزيل الكروب، وعانى من احتقانٍ في الزور من جراء قبضة يد الثور على عنقه

النحيل، لكن الثور عمل على معالجته حتى طبَّ وأبلَّ من المرض.

***

بعد مراسم الاستقبال التي أقيمت للديكتاتور الكريه الزائر، دُعِي إلى القصر الجمهوري للقاء الرئيس شحاتة حبيب القلوب، وسمع طقطق في التلفازعزف السلام الديكتاتوري لدولة الرئيس الزائر، فتابعه في شغف وحفظ مقاطعه، ولما دخل الديكتاتور مكتب الرئيس، نهض طقطق وراح يعزف في انسجام السلام الديكتاتوري، ولما انتهى من عزفه صفق الديكتاتور في جذلٍ طفولي، وكذلك صفق الرئيس شحاتة والمترجم، لكن ما إن حطت نظرة طقطق على الديكتاتور حتى تساءل همسا:

- أين رأيت ذلك الوجه البغيض؟

وظل يتذكر:

- أ ليس هذا هو الوحش الذي طاح في كل المخلوقات ببلدي قتلاً وتنكيلاً؟ و يوم أن فررت منه، أوقعني حظي العاثر في أسر بحارٍ عجوزٍ أعور، باعني في أول ميناء توقفت سفينته فيه، نعم، إنه هو.

عندها تحركت في طقطق كوامن ثورةٍ مكبوتةٍ داخله، فهتف بلغةٍ غريبةٍ:

- أهلاً بالقاتل السفاح.

أربد وجه الدكتاتور، وتقلبت عليه الألوان الأربعة: الأصفر والأحمر والأزرق والأخضر، لكنه آثر أن يبتسم في دبلوماسيةٍ، هنا صاح طقطق كأنه يذيع تقريراً إخبارياً:

- حيث قام الديكتاتور الفاشي اللعين... الأول بأعمال إبادة جماعية، مات بسببها ربع مليون نسمةً، بالإضافة إلى ذلك هناك ثلاثون ألفاً أعدموا ظلماً وجوراً وعدوانا، وعشرة الآف حالة اختفاء قسري، عاد منهم ثلاثة الآف فقط، قل لي أين البقية؟ هه.

لاحظ شحاتة التغير الزائد في لون سحنة الدكتاتور الزائر، فسأل المترجم:

- ماذا يقول الببغاء؟

تلجلج لسان المترجم واضطربت الكلمات في فمه وهو يخبر الرئيس شحاتة بما قاله طقطق، فتجمد الرئيس في مكانه، بينما نهض

الديكتاتورغاضباً، شد سترته المزينة بالنياشين لأسفل، وقال موجهاً حديثه للمترجم:

- قل لرئيسك إن الزيارة أُلْغَيتْ والعلاقات الدبلوماسية قُطِعَتْ.

خرج غاضباً تاركاً خلفه الرئيس شحاتة في حالةٍ من الحزن والهم، آه، تلك الزيارة التي رتب لها من شهور؛ آملاً في أن يحصل بعدها على باقةٍ من المنح والمعونات ضاعت الآن سدى.

جال بصره فيما حوله، وقعت عينه على طقطق، فصاح غاضباً:

- أنت السبب أيها اللعين، سأجز رأسك جزاً.

لكن طقطق لم يهتز، لأنه في نفس اللحظة تذكر القبطان منجد، وتمنى أن يراه هناك كما وعد، ولما رأى شحاتة ثبات قلب طقطق، اندهش وسأله:

- أ لست خائفا؟
- مما أخاف؟ قلت ما يجب أن يقال.

دار شحاتة حول نفسه مرتين، وفي نصف الدورة الثالثة جاءته الفكرة ساطعة، صاح بصوتٍ مرعد:

- أنت يا مخلوق.

جاء الرجل الذي يشبه الثور بعض الشبه، وقال:

- أوامر معاليك.
- خذ هذه المصيبة من هنا، وأبعث بها إلى أمي في البلد.

***

٧. كانت أم الرئيس شحاتة امرأةً ريفيةً ساذجةً، قالت والثور يسلمها الببغاء:

- ماذا أفعل بهذا الطائر؟
- يا حاجة، سَيَّبَيه مع الدواجن، من الممكن أن يبيض.

قال وانصرف لاعناً ساخطا، لأنه لم يتناول إفطاره سوى مرةٍ واحدةٍ.

أمسكت المرأة طقطق من جناحيه فانعقد لسانه وجف ريقه من هول الخوف، وقالت المرأة لنفسها:

- يا بنت له ريش طويل ويمكن أن يطير، أحسن شيءٍ أنتف ريشه.

ومن بين صرخات طقطق وبكائه، نتفت المرأة ريشه ريشةً ريشة، ورمت به بين الدواجن.

***

مر شهر، وطقطق في حالة يرثى لها، يبكي ريشه ومعرفته التي لم تسلم من أذى تلك المرأة الجاهلة.

كان كل ليلة عندما ينام مقهورا مكدوداً يحلم أن ريشه نما نمواً عظيما، وأن جناحيه امتلآ وصارا مثل جناحي نسرٍ جسورٍ، وإنه انفلت طائراً وظل يضرب بجناحيه طويلاً، حتى وصل إلى البحار الزرقاء البعيدة.

***

ولأن الأيام أحياناً تحقق الأحلام، في ذلك اليوم السعيد استيقظ طقطق من نومه، وجد ريشه يغطي جسده كله، نعم نما ريشه واكتمل، وقف طقطق وضرب بجناحيه الهواء مراتٍ ومراتٍ قبل أن يطير في أرجاء الحظيرة، يغني حيناً ويهزج بالكلمات حيناً، حتى جاءت أم شحاتة لتجمع البيض، وقعت عينها عليه، قالت لنفسها:

- يا أختي، مر شهر والطير كله باض إلا هذه الطائرة، دعيني أنظرها.

أمسكت بطقطق المسكين ومدت أصبع الوسطى في فتحة مؤخرته، هنا بكى طقطق شرفه المسفوح، وصاح بحرقة لاهبة:

- بلد فاسد، أكل من يقول الحق فيه يناله مثل هذا الفعل الردئ؟

اندهشت المرأة، وارتخت من الخوف أصابعها، فانفلت طقطق من يدها، وطار محلقاً مسافراً نحو حلمه الأثير بالبحار الزرقاء البعيدة.

٤- مدينة الأحلام الضائعة

١. القطار كالمخيلة يسير على خطي ذهابٍ وإيابٍ، أحدهما الماضي والآخر المستقبل، كلاهما يغتصب اللحظات اغتصاباً، لكن أحدهما يلقي بالزمن وأيامنا في بئر النسيان، والآخر يستقبل الأماكن والأيام ويقف بنا في محطاتٍ غريبةٍ، تشملنا فيها وجوه غرباء يحملقون فينا بعيونٍ متفرسةٍ متسائلةٍ، ثم يعاود القطار السير قاصداً المنتهى، كأنه طفل عابث؛ يرمي الوجوه ومشاهد الطريق وراءه، ويحيلها إلى ذكرياتٍ تتباعد كلما ابتعد بنا متوغلا في عمق الزمن.

***

هكذا كان الرجل الذي جاء من بلاد تقع خلف الجبال البعيدة، يحاول في انبهارٍ أن يلاحق شريط الصور المتتالية التي تقذف خلف ظهره، حتى يئس من ذلك، فاستسلم لوقع الوتيرة المنتظمة لدوران عجلاتٍ تسعى به نحو مستقبلٍ غامضٍ.

ثم أبطأ القطار من سرعته استعداداً لقرب وصوله إلى محطة النهاية، فتسرب إليه نعاس ثقيل خطفه خطفاً على الرغم من مقاومته المضحكة.

كانت عجلات القطار تلحس القضبان لحساً، وتصفر صفيراً مزعجاً، حين هزته يد الرجل الناعم الملمح والصوت، الذي شاركه الملل والصمت طوال الطريق، قال وهو ينهض:

- حمداً لله على السلامة.

نهض رجل الجبال البعيدة متثاقلاً، تمطى وأدار رأسه يمنةً ويسرةً، ليلين فقرات عنقه، التي أحس بيبوسةٍ تلم بها، مع ذلك مط جسده وتناول حقيبته وابتسم ابتسامةً ماكرةً فرحةً.

هم يغادر القطار، ولما أصبح خارج المحطة أصعد تنهيدة ارتياحٍ، همس:

- ها هي ذي مدينة أحلامي؛ بعد كل ذلك العناء.

هز رأسه منتشياً، وخطا خطوةً أخرى في طريقه لقلب المدينة.

حملق في الأبنية الشاهقة الارتفاع، وغمغم متعجباً:

- كل هذا الارتفاع إن دل لابد أن يدل على العلاقة الوثيقة بين المدينة والسماء.

ثم أخذه خياله إلى المقارنة بين تلك الأبنية المهندسة وقريته الواطئة المنسية التي يحوطها شاطئ بحرٍ من الرمال في غير اتفاقٍ، بأبنيتها المصنوعة في أفضل الأحوال من الطوب اللبن، فكر:

- المدن يصنعها المهندسون، أما القرى فيخلقها الله.

حاول أن يتذكر من الذي أخبر بذلك، لكنه عجز عن التذكر، طمأن نفسه هامساً:

- دائماً تبقى الأقوال، بينما يذهب قائلوها.

كان لرحلته إلى المدينة، التي قطع من أجلها مئات الأميال . هدف واحد، أخفاه، بل أجاد إخفاءه عن الجميع،جاء ليمتع نفسه، وكان طوال سفره يفكر(المدينة مملوءة بالنساء)هؤلاء النسوة اللاتي رآهن في نسخ من مجلاتٍ قديمةٍ، كان يستعيرها من ذلك الطبيب البائس المقيم في قريته، الذي بمضي الأعوأم ما عاد يفترق كثيراً عن فلاحيها مظهراً ومخبراً

نسوة المجلات هؤلاء؛ كن طاغيات الحسن آسرات الجمال، كلهن زرن ظلمة غرفته وداعبن خياله، ليلةً بعد ليلةٍ جئن إليه، تمايسن، وأومأن له ايماءاتٍ ملغزةٍ موحيةٍ حيرت عقله الصغير، الذي تفتقت أفكاره عن حيلةٍ شيطانيةٍ للوصول إلى عشهن في المدينة.

أخذته الخطوات خطوةً بعد خطوةٍ إلى زحام المدينة، وغاصت به أكثر في سعيه للوصول إلى قلبها النابض بالحياة، أدهشته كل تلك السيارات المتراصة في انتظار إشارة المرور الخضراء، همس:

- يا طوابير السمسم.[1]

جال ببصره بحثاً عن نسوة مجلات طبيب القرية، أطلت إحداهن من أفيش فيلم، قرأ عنوانه خطأً(امرأة صائعة) دقق البصر في اللوحة المعلقة المحاطة بلمبات الفلورسنت المطفأة، وفكر:

(كل شيءٍ في المدينة مباح إذن، نعم كل شيءٍ مباح. ها هي امرأة تعلن عن نفسها، كم هي جميلة)

جسدها المائس ونظرتها الجريئة دغدغا هرموناتٍ ذ كورته، فاضطربت في جسده الرغبات، لكنه أدرك أن النظر خاتله، وأن المسكينة (امرأة ضائعة).

صدم المعنى هرموناته المتأججة، فمالت أفكاره به (ربما كان الرجال في المدينة يبحثون عن نسائهم الضائعات بالإعلان عن ذلك، ربما، من يدري؟)

---

(١) (يا طوابير السمسم) تعبير يقوله الفلاحون تعبيرا عن شدة الازدحام، حيث يجمعون أعواد السمسم الى بعضها البعض في هيئة حزم هرمية الشكل، يرصونها متجاورة في الحقول في انتظار أن تجفف الشمس قرونها.

هكذا اطمأن لوجود حصافته التي اصطحبها معه من قريته البعيدة المخفية خلف الجبال وكثبان الرمال.

ليترك الآن الصور التي لاطائل من ورائها، ألم يجئ من أجل اللحم الحي المفعم بالدفء والرغبة ؟ أين يا ترى النساء؟

خفض بصره المعلق بالأفيش، ليبحث عن مبتغاه، رأى ثلاثَ موظفاتٍ، كن في مواجهته، يقفن في انتظار الباص، إحداهن تلبس جوبَ قصيراً يكشف عن ساقين معوجتين خلفهما لين عظام طفولةٍ بائسةٍ، لكنهما الآن تختزنان عضلات ربلتين قوتين تنتهيان إلى كاحلين رفيعين، رفع عينيه فرأى شعرها هائشاً ونظراتها زائغةٍ، حطت نظرة منها عليه، فأربكته، انصرف إلى مجاورتيها اللتين تغطتا بثيابٍ ضافيةٍ، وأحكمتا غطاءين حول رأسيهما، بادرتاه بنظراتٍ قاسيةٍ كارهةٍ شتتت بصره، سمع غمغماتهن، ثم لفته رائحة عرقٍ وغضب وعصبية فاحت منهن، أين ياترى رأى وجوههن من قبل، ومتى؟ لم يستطع أن يتذكر سوى صورةٍ خياليةٍ مبهمةٍ لنسوةٍ ثلاثٍ عجائز مرت في لمح البصر أمام عينه، جعلت قلبه يضطرب ويزداد خفقانه، حتى غام ذهنه وابتأست نظرة عينيه، وللحظةٍ دارت الأرض به، تماسك بصعوبةٍ بالغةٍ، شعر بغصةٍ في حلقه، أشاح بوجهه عنهن وقلبه يرتعد، ولكي يبدو بريئاً من كل غرضٍ تصنع النظر إلى الرجال، بدوا له أكثر بؤساً وضآلةً عما اعتاد أن يرى الرجال عليه، همس لنفسه:

بئس الرجال رجال المدينة، مالهم يتحركون وكأنهم حشرات زاحفة؟

لايدري لم قفزت إلى ذهنه صورة أمه؟ فتأرجت قرب أنفه رائحة الحلبة والسمن البلدي وريش الطيورالمذبوحة ووقيد الفرن والخبز الصابح، وخال كف أمه الحانية تمشي بأصابعها في شعره وهي توقظه في الصباح حاملةً له كوباً من اللبن، ثم انزلقت أفكاره أكثر وأكثر وغاصت به، هناك كانت صورة بيتهم وغرفه المتراصة كالعنابركأنها خزاناتٍ تحوي الأبناء والحفدة، جميعهم كانوا يجلسون على كليمٍ من الصوف، يتحلقون حول الجد العجوز الذي يرنو بعيداً وهو يقص عليهم حكايا وأساطير الأجداد، وتذكر على نحو غامضٍ دخول جده المهيب إلى البيت وصوته يجلجل في أركانه، فتنفزع النسوة الجالسات ويطرن محلقاتٍ ليختفين عن ناظريه.

***

خلف الدار، تقع الغرف المتسعة المبنية بالآجر المخصصة لتربية الأرانب والحمام، هناك كانت تلك اللحظة الفريدة التي يلقي فيها بحزم البرسيم على الأرض، فتطل الأرانب البيضاء والسوداء برءوسها من الجحور، تلعب أنوفها متشممةً عطر العشب الأخضر، وعندما تطمئن، تخرج، تتبعها صغارها حديثة الفطام، تغطي كومة البرسيم، وتعمل أفواهها الصغيرة في سرعةٍ ودأبٍ على تجريده من أوراقه.

يسمع صوت قرقعة حبات الذرة وفول الحمام، وأمه تدلق الطعام في القصعة الكبيرة، ثم يجيئه صوت ذكور الحمام حين تدور فوق الصفائح المعلقة، يطن الهديل في أذنيه قبل أن تسقط الذكور على الحبوب، وتعمل مناقيرها بسرعةٍ لتلتقط الحبات، ثم تصعد إلى أفراخها، يسمع أصوات الأفراخ الصغيرة، وهي تدس أفواهها في مناقير أبويها كأنها تحاول أن تسرق قبس الحياة من أرواح آبائها، وعندما ينتزع الأبوان نفسيهما منها عنوةً، تتبعها الصغار حتى حافة البناني والصفائح متوسلةً راجيةً.

يستدير نافخاً الهواء من فمه ضجراً، تسأله أمه:

- ما لك يا ولدي ؟
- مللت يا أم، مللت كل شيءٍ.

يستدير خارجا، يرمي ببصره إلى البعيد البعيد، هناك كانت المدن تنشأ أمام خياله أبراجاً من زجاجٍ لازوردي أزرق ضارب إلى حمرة، تحوطها أسوار قدت أحجارها من زبرجدٍ أخضر، ورصفت أرضها بيشبٍ وعقيقٍ، أبوابها السبعة محروسة بأسود ضارية، حتى لايدخلها إلا الموعودن.

يستدير فلا يرى حوله سوى فلاحين أجلاف، يجرون بهائمهم العجفاء، يلقون التحية من بعيدٍ له بأصواتٍ خشنةٍ لا رواء فيها، فيرسل

مع تحيته زفرةً حارةً متضجرةً لقريته النائهة بين الجبال والصحارى،التي لايعرف أحد عنها شيئا، لولا تلك البئر الغامضة، التي حفرها في أيامٍ بعيدةٍ أشد غموضاً جدهم الأعلى (العجرود) الهارب من وباءٍ أو دم أو حربٍ، لا أحد يدري على وجه التحديد ما الذي رمى به إلى صحراء العدم تلك، لأن كل الذي قالوه له عنه . وهم يتشاجرون والواحد منهم يمسك بلحية الآخر مقسماً إن يقتلعها لو خالفه الرأي . لم يكن يقطع عنده بيقينٍ.

وحده ذلك الطبيب الأبله كان يرى في تلك القرية جنة الله في أرضه، يهمس له:

- هنا فقط وجدت سلام روحي، ونسيت كل خبث المدينة ووضاعة أهلها وساكنيها، هناك تركت خلفي الحب الأجوف الزائف والابتسامات المائعة الزائفة والواجهات اللامعة الزائفة والهواء الملوث الزائف والرجال والنساء الزائفين.

يرد ساخراً منه:

- ووجدت هنا السلام الهادئ الزائف والسكون الوادع الزائف والخواء الخادع الزائف والموت البارد الزائف.

يضحك الطبيب الذي يلبس مثلما يلبس فلاحو القرية جلباباً من تيلٍ أبيض، يحك ذقنه النابت، يقول:

- يوماً ستدرك المعاني، فتنطق بالصواب، أ تعرف ما الذي ينقصك على وجه التحديد ؟

يهز رأسه متسائلاً، يقول الآخر وهو يزم شفتيه:

- التجربة، نعم، التجربة.

ثم يستدير ويخلفه ماضيا عنه.

***

ثم جاءته التجربة، لا ليست التجربة، إنما الفرصة، أو ما اعتقد أنها الفرصة، الماء في البئر يغيض، وكل المحاولات لحفر آبارٍ أخرى انتهت إلى فشلٍ ذريعٍ، كانوا يحفرون تحت وقع سياط الشمس بئراً إثر بئرٍ، فلا يجنون إلا الخيبة والخيبة، فيزداد احتقاره لهم، بينما كانوا يبتسمون في حب له، وهم يسألونه:

- أين يا ترى يمكن أن ينبجس الماء؟

فلا يرد جواباً، يستدير وعلى فمه ووجهه ابتسامة ازدراءٍ لهم، يهمس لنفسه:

- ستخرجون يوماً من متاهتكم أيتها الحشرات العابثة.

***

ثم غضبت السماء ولم تمطر في ذلك الشتاء، وغضبت لغضبها الأرض، وفي الشتاء الذي تلى، لم تدمع من أجلهم سحابة واحدة تائهة في السماء، كانوا يرفعون الرءوس إليها متوسلين، فلا يرون بارقة أملٍ، ينظرون للأرض، فلا يسمعون سوى أنينها الشاكي، وهي تتشقق من العطش، حتى خزان الماء ضاع نصف ما فيه، وخزائن الحبوب ماتت على أطرافها العصافير واليمامات الجائعة التي كانت تنال من فضلتهم شيئاً، يوم أن أغلقوها جيداً في وجوهها، بعد أن كادت الأجران تفرغ من الخزين

بدأ الشقاق والتناحر يدبان بينهم لأتفه الأسباب، وانزوت الطيبة من وجوههم المسودة،وتوارى الكرم، وشعع الشح في عباراتهم خبثاً:

- من أين ؟ ما في والله، لكن ربك كريم.

***

سخر من الطبيب وهو يرى نحوله وبطنه الضامر ووجهه وبوزه الممطوط، يقول له في مكرٍ:

- أ تعرف ما الذي ينقصك أيها الطبيب ؟

ينظر الطبيب إليه متسائلاً في سذاجةٍ:

- ما الذي ينقص؟

- التجربة، ها أنت أمام التجربة.

يقولها في أبوةٍ صادقةٍ صدقا كاذباً، وهو يستديرمبتسماً في خبثٍ ووضاعةٍ مخلفاً إياه فاغر الفم، تفوح منه رائحة الموت متى اقترب من الأشياء ورمى ظلاله عليها.

***

يجلس الآن وحيداً أسفل شجرةٍ وحيدةٍ، تمتص جذورها من رطوبةٍ خفيةٍ، كأنها وحدها التي تملك الآن سر الحياة.

فكر بعمقٍ وزم شفتيه كثيراً، ورمى بالفكرة تلو الفكرة خلف ظهره، ثم لمعت في عينيه بارقة تكاد تضيئ الأفق أمامه، هتف:

- وجدتها.

***

كان دائماً يعلي من قدر نفسه، معتبراً أنه الأذكى بين أبناء قريته السذج البسطاء، كم مرةً همس لنفسه (الذكاء هو أن تجعل الآخرين يفعلون ما تريده أنت) الأمر إذن هكذا.

الآن، عليه أن يخدعهم بأعصابٍ باردةٍ مستغلاً أزمتهم الطاحنة، فهو لم يكن يوماً يهتم بمخاوفهم أو مشكلاتهم، فلا نقص مياه الري

يعنيه ولا الحشرات والأمراض التي تهدد الزرع والقلع والحيوان تهمه، بل كان يكن احتقاراً لحياتهم التي لاتتغير، كأنها كلها يوم أبدي طويل لاينتهي.

وفي المقابل، كانوا جميعاً يحبونه ويحترمون رجاحة عقله التي مكنته أن يحصى حتى رقم مئةٍ، وأن يفك وحده لغز الأحرف الثمانية والعشرين للأبجدية، فيفك طلاسم مجلات الطبيب ويقرأها عليهم.

***

مضى نحو القرية، وقف ينظر في قاع بئرٍ جفت، رأى بعين خياله نفسه راحلاً صوب مدينةٍ بعيدةٍ، وسمع صوتاً يصعد إليه من غور البئر:

- تعال، يا حبيبي وولدي.

***

٢. أعلن عن اجتماعٍ في السقيفة، تلك السقيفة القديمة التي أنشأها العجرود الأكبر، وهي التي تمثل ملخص أفراحهم وأتراحهم ومناط آمالهم متى ألم بهم كرب أوسيل أو ضربة من ضربات القدر.

بكل ما خبأه جيداً من احتقارٍ لهم، رآهم يزيحون الطواقي الصوفية المغزولة من صوفٍ خشنٍ على مغازل بدائيةٍ، تلك الطواقي المرتفعة المسحوبة كأنها طراطير؛ كانت تمثل له رمزاً للبلاهة.

انكشفت أمامه صلعات رءوسهم لامعةً، وارتسمت على وجوههم نظرات متشوفة؛ تحاول أن تسبر ما يخبؤه في صدره، وقف فيهم خطيبا:

- لا أدري، ماذا تنتظرون؟ أهناك شيء خلف جفاف البئر تلو البئر سوى الموت، هل الحكومة عاجزة على أن تمد خط مياهٍ عبر هذه الكيلوات السبعمائة التي تفصلنا عن المدنية، لتنقذنا من الموت عطشاً وجوعاً ؟ لكن أحداً منكم لم يحاول أن يصل بصوته إليها، فقط ثرثرة وكلام في كلامٍ، هذا ما تجيدونه تماماً وأنتم تحصون مع كل إشراقة شمس ما مات أو نفق من زرعٍ أو ماشيةٍ، وتنتظرون رحمة السماء بكم مطراً؛ قطرة مطرٍ واحدةٍ لن تجود بها السماء عليكم، أتدرون لماذا ؟ لأن السماء لاتعبأ بالكسالى والمتواكلين.

توقف حينها ليلتقط أنفاسه، أجال البصر في الحضور الواسع للجالسين على المقاعد الطويلة التي صنعت من شق النخيل، تململ جسد جرعود بائع الدبس(عسل التمر) وأكثرأهل القرية مالاً وبخلاً، ثم وقف، وقال:

- بعثنا من قبل برسلٍ من أبنائنا لكن أحدا منهم لم يعد، أخذتهم المدينة أخذا، وربما تاهوا في درويها وشوارعها.
- كان ذلك منذ سنين ولم تكن الحال على ماهي عليه، كان هناك بارقة أملٍ فى أن تمطر السماء، أو أن تتفجر بئر جديدة، لكننا الآن نعيش يقين الموت الذى سيحل بنا إن لم تدفعوا لمن سيذهب إلى المدينة ما يحميه من الضياع والعوز شهوراً، قبل أن يصل بصوته إلى المسئولين.

تعالت الهمهات في جنبات المكان، ووقف شاب نحيل أسمر، قال سائلاً:

- الآن، ما هو المطلوب منا ؟
- المطلوب هو أن نختار واحداً من القرية ليحمل رسائل الإستغاثة إلى العاصمة، وأن نكفيه ذل العوز ومرارة السؤال، ليستطيع أن يلح وهو يطرق أبواب المسئولين، ليصل بأصواتكم إليهم، ليدفع كل واحدٍ منكم ما يستطيع دفعه، أ ليس من أجل ذلك صنع هذا الصندوق؟

قال وهو يشير بإصبعه إلى أحد الأركان، حيث يقبع صندوق قديم دهن بطلاءٍ حائل اللون.

خفض جرعود رأسه حتى كاد يخفيه في رقبته، فصرخ فيه:

- إرفع رأسك يا جرعود وانظر إلي.

رفع جرعود رأسه، ووقف في جلبابه الرث منافحاً عن نفسه:

- ألا يوجد هنا أحد غيري، سأدفع متى دفع الآخرون، لكن قل لي قبلها، من الذي سيحمل مالنا وشكوانا في هذه المرة ؟ من في هذه القرية جدير بذلك أيها الأخ المتحمس ؟
- اختاروا من تشاءون ومن ترون فيه أنه أهل لذلك، هذا أمر يرجع لكم.

حينها أدار عينيه ورأى لأول مرةٍ ثلاث نساء عجائز، لم يرهن من قبل، لايدري من أين أتين، ست عيونٍ جاحظةٍ تحملق فيه، نهضن ومشين إلى الصندوق وأخرجن صرر مناديلهن من صدورهن العجفاء، حللن عقدتهن، وأخذن نقوداً ووضعنها في فتحة الصندوق، قرقعت النقود في الصندوق الخالي، قبل أن يتجهن إليه مشيراتٍ بأصابعهن هاتفاتٍ في صوتٍ واحدٍ:

- أنت من سيحمل الأمانة، أنت ولا أحد غيرك من سيفعل هذا.

تندى جبينه بقطراتٍ من عرق باردٍ، وانساب خيط منه تحت إبطيه، ارتعد قلبه، وصكت أذنه أصوات تعالت من حوله:

- نعم، نعم، أنت ولا أحد غيرك من سيحمل الأمانة.

لايدري لماذا رنت الكلمة الأخيرة رنيناً مدوياً في أذنيه.

***

قبيل أن ينفض الاجتماع، كان الجميع يضعون بعض نقودهم في الصندوق، راقب أجسادهم النحيلة التي أمضها وأضناها الجوع والعطش وهي تسعي نحو الصندوق، ثم تستدير ناظرةً إليه في أملٍ وتوسلٍ.

اتفق على أن يبقى أسبوعاً، حتى يكتمل تبرع الناس لرحلته وليتجهز للسفر، سيخرج ومعه من رجال يصحبونه إلى أقرب محطة قطارٍ تائهةٍ في الصحراء على مبعدة مائتي كيلو من البلدة.

***

في باكورة ذلك الصباح، الذي يبدو له الآن بعيداً وغائماً وتائهاً في سديم الزمن، كأنه يأخذ من روح تلك اللحظة الفريدة التي انفجر فيها الكون وانجلى غباره عن الوجود، اجتمعت القرية كلها أمام دار العجرود ذلك القطب العجيب الخارق الملفوف بالأساطير والحكايا، وهو الذي أتى بهم إلى ذلك البحر من الرمال في أزمنةٍ سحيقةٍ، وأسكنهم حول بئر ماءٍ يمثل بؤرة الضوء الوحيدة التي تضئ قسوة وجفاف الصحراء من حولهم.

اجتمعت الناس من حوله، بعضهم جاءه برسائله إلى أهلٍ وأصحابٍ في المدينة البعيدة، ربما وجدهم، وربما لا، هم ليسوا واثقين من شيءٍ غير الأمل.

جاءت النسوة العجائز الثلاث من قلب الجمع، ابتسمن له، واقتربن منه، أمسكت به رعدة، وشعر بعيونهن تخترق أعماقه وهن يقتربن منه، حتى وقفن أمامه، دست كل واحدةٍ منهن في يده شيئاً مربعا قبل أن يستدرن متراجعاتٍ.

حين فتح كفه،وجد أحجبةً مصنوعةً من جلد الإبل، ابتسم في احتقارٍ، لكنه دسها فيما دسه من أوراقٍ وخطاباتٍ ونقودٍ في جيب صداره.

بدأ الرجال الذين سيصحبونه إلى محطة القطار ينهضون جمالهم، اعتلي هو ظهر جملٍ، صاح به، فنهض، مضى الركب وهم يلوحون بأكفهم في الهواء مودعين القرية.

***

٣. صفير القطار الذي أقله إلى المدينة يأتيه من بعيدٍ، يعلن أنه سيغادر المحطة مقلعاً في الاتجاه الآخر، ليتركه خلفه واقفاً عند شجرة منتهى أحلامه.

***

غاص أكثر وأكثر في قلب المدينة معلنا بذلك التحاقه بها التحاقاً نهائياً وانقطاع عالمه عن عالم تلك القرية المنسية خلف الجبال البعيدة، التي كانت في الأزمنة الغابرة واحةً تقصدها القوافل، ها قد أصبحت الآن تموت أو تكاد من العطش والجوع. وهو لم يكن أول الفارين منها، لكنه كان أخطرهم شأنا.

تحسس جيب صداره الداخلي، تلمس بأطراف أصابعه تلك الرسائل التي أودعتها القرية أمانة بين يديه.

عاثت أصابعه وغاصت أكثر في صداره لتصطدم بتلك الأحجبة التي أعطتها له النسوة الثلاث العجائز، فكر فيهن، فارتعد جسده كله وهو يبصر طيفهن يهمس في مكر له:

- أنت، أنت وحدك من سيحمل الأمانة، آه ما أثقل حملك أيها القعود الصغير الغرير.

أغمض عينيه و هز رأسه، فتلاشت الأطياف الساخرة.

***

في طريقه مال على واحدٍ توسم فيه الأريحية، سأله :

- قل لي من فضلك كيف لي أن أذهب إلى بيوت المتعة في هذه المدينة ؟

نظر إليه الرجل متعجباً مندهشاً وبدا كأنه لم يفهم السؤال، فأعاد الرجل الريفي السؤال عليه :

- أود أن أذهب إلى بيتٍ من بيوت المتعة.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه الرجل وازداد عجباً، عاد بجسده خطوةً إلى الخلف ليشاهد ذلك المخلوق القادم من خلف الأزمنة، وسأل ليتأكد من ظنونه:

- أتسأل عن بيوت المتعة؟
- نعم.

ندت من الرجل صيحة تعجب، انقلبت إلى ضحكةٍ مجلجلةٍ، أصابت الرجل الريفي بالارتباك والحرج، لكنه سأل:

- وما في هذا ليضحك؟
- لا، لا شيء على الاطلاق، لكن قبل أن أجيبك قل لي من أين جئت أنت؟
- أنا من قرية خلف الجبال غائبةً في قلب الصحراء.

قال الرجل ساخراً:

- جميل جداً، أنت إذن مبعوث هذه القرية لرئاسة الجمهورية ؟
- لا، أنا جئت فقط لأستمتع بزيارة المدينة.

نظر حواليه متلفتاً، وقال :

- لا أخفيك سراً، لقد رأيت كثيراً من الصور لنساءٍ جميلاتٍ كالورود اليانعة، فقررت أن أجئ إلى المدينة بعد أن بعت محصول عجوة التمر الذي كان وفيرا هذا العام.

زم الرجل الأريحي شفتيه وهمهم، ثم قال:

- جئت إذن لتستمتع؟
- نعم، أ يمكن أن تشير على ببيوتٍ تبيع المتعة؟
- بالطبع، يمكنني مساعدتك، أنت شخص محظوظ، لأنك جئت للشخص المناسب الذي سيدلك ويأخذ بيدك إلى الجنة، أنظر بيوت المتعة كلها هناك خلف البوابة العريضة، أتراها؟
- لا، لا أرى شيئاً.

أشار الرجل الأريحي بعيداً بأصبعه:

- أترى هذا الشارع اذهب إليه، ستجد في نهايته زقاقاً، أدخله، في نهاية الزقاق ستجد بوابةً، خلف مصراعيها المتعة كل المتعة.

- أ حقاً؟
- بلا شك.

بعد كثيرٍ من التشكرات توادعا الرجلان، وتمنى الرجل الأريحي للرجل الريفي كل الهناء والحظ السعيد.

***

مضى في طريقه، وأخذته الخطوات من الشارع إلى الزقاق المنشود، تردد لحظةً قبل أن يلجه داخلاً، لكنه أزاح تردده جانباً، دق بكعب حذائه الحجارة المربعة البيضاء الكلسية، التي تغطي أرض الزقاق، أنصت جيداً لوقع خطواته، قبل أن ينتبه إلى وجوه ثلاث نسوةٍ قوياتٍ يجلسن على أعتاب بيوتهن يمروحن بطرف جلاليبهن كاشفاتٍ عن أفخاذٍ أعشت حمرتها عينيه، أشاح بوجهه، قبل أن يعاود النظر إليهن، قابلنه بنظراتٍ وقحةٍ مزدريةٍ، مضى تصفعه أصواتهن العالية الساخرة:

- يا أختي، الرجل حيله مهدوم.

جلجلن بضحكاتٍ فاجرةٍ ساخرةٍ، ألهبت قفاه العريض، وجعلته يوسع الخطو، ليصل إلى نهاية الزقاق، هناك وقف أمام بوابةٍ ضخمةٍ، لها مصراعان كبيران، كل مصراعٍ منهما يماثل الآخر قوةً ومتانةً ودقة صناعةٍ، كلاهما صنع من ألواحٍ من الخشب شدت إلى بعضها بطريقة

تجعلك لاترى الفرق بين واحدها والآخر، بينما زينت الأطراف برقائق من النحاس ثبتت إليه بمسامير غلاظٍ من الصلب؛ رؤوسها بارزة، توقف لحظةً يتأمل بناء البوابة، ثم دق عليها بيديه دقاً متواصلاً، لكن أحداً لم يفتح له، ولما أدركه اليأس، وقف يهرش قفاه واستدار ليعود خارجاً من الزقاق، وجده قد سد عليه والنسوة اللاتي ضحكن منه تلاشين، حارعقله وذهلت عيناه وأمسك به رعب قصي، فمشى وقشعريرة تسري في جسده، فتش في أركان المكان بعينيه عن مخرجٍ ينفذ منه، وللحظة ظن أن أحداً يعبث به ومعه، بقلب متوجس واصل السيرإلى عمق الزقاق، ثم عاد ليقف عند البوابة، أمسك بمقبضها ليفتحها، حاول مستخدماً كل قوته، فوجدها راسخةً ثابتة لم تلن لعزيمته، دق ودق بقبضتيه، تناثر الصوت مدوياً من حوله، ولا من مجيبٍ، حتى فترت همته، وانحل عزمه.

ركع على ركبيته، وتسلل يأس أسود إلى نفسه، شتت عقله وشل تفكيره، ثم وقع بصره على بطاقةٍ من الورق المقوى عُلِقَتْ على البوابة، فغر فمه في بلاهةٍ، جاهد حتى يقف، حملق جيداً في البطاقة المعلقة، وراح يقرأ ما كتب عليها:

- أنت أيها الأخ الكريم، الذي جاء إلى مدينتنا بحثاً عن المتعة والإثارة، هلا وضعت بعض نقودٍ قليلةٍ في الصندوق المعلق بجانب البوابة، عندها سنفتح لك بوابة الأحلام هذه، وندخلك،

لتحصل على ما جئت من أجله، كن متأكداً أننا سنمتعك متعةً لاتنسى ولا يضيع لها أثر، لا تتردد.

رنا بعينه إلى الصندوق المعلق، أدهشه تطابق شكله مع الصندوق القديم المطلي بلونٍ أخضر حائلٍ الموجود بسقيفة العجرود، همس متعجباً:

- إنه هو نفسه بأركانه التي قرضتها فئران أخذها الجوع إليه.

سمع صوتاً يجيئ من أعماقه (لا تتردد).

لم تمر سوى ثوانٍ قبل أن تعبث أصابعه في جيب جلبابه، وشفتاه تتمتمان(قروش قليلة، قروش قليلة فقط، لا بأس من التجربة)كأنه سمع صوتاً خفياً يهمس معه(نعم، لا بأس من التجربة والألم) تلفت حوله، فلم يدرك سوى الصمت وحده، بدأ يسقط النقود في الصندوق قرشا قرشا، ثم أغمض عينيه وانتظر.

***

٤. صك صوت صرير المصراع الأيمن أذنيه صكاً وهو يدور على محاوره لينفتح أمامه، ترددت قدمه ليس لأكثر من ثانيةٍ واحدةٍ قبل أَن يخطو خطوةً فخطوةً فثالثةً، بعدها دار المصراع منغلقاً عليه.

وقف مذهولاً، ليس أمامه سوى صالةٍ كبيرةٍ مستطيلة الأبعاد، رصفت أرضها ببلاطاتٍ بيضاء وسوداء تماماً كرقعة الشطرنج، ولا أي شيءٍ آخرغير برودةٍ قارسةٍ تنفذ إلى عظامه، ارتجف جسداً وروحاً وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، هامساً لنفسه:

- ما من شيءٍ هنا يدل على وجود كائنٍ حي، ما أعجبه من مكانٍ، أين إذن المتعة والإثارة والنساء والأشياء التي تجلب السرور، أين؟

لم يكن هناك شيء سوى بلاطاتٍ صامتةٍ تصفر فوقها ريح واهنة عابرة، تعلوها سماء بعيدة ملبدة بغيومٍ سوداء منذرةٍ، نظر إليها طويلاً، ثم خفض بصره فرأى في الجهة المقابلة بوابةً لها مصراعان يشبهان تماماً البوابة التي نفذ منها، خطا نحوها والشك يمتلك نفسه، تأملها لحظةً، وتساءل:

- أ تكون هي نفس البوابة التي دخلت منها؟ أ أدورهنا حول نفسي؟

عاود النظر خلفه، رأى البوابة الأخرى حقيقةً ماثلة أمامه، هز رأسه ليثبت يقينه، وعاد ينظر إلى البوابة التي جثمت أمامه، رأى نفس البطاقة المعلقة بالبوابة تطل ساخرةً منه، قرأها على مهلٍ:

- أنت أيها الأخ الكريم، الذي جاء مدينتنا بحثاً عن المتعة والإثارة، هلا وضعت بعض نقودٍ قليلةٍ في الصندوق المعلق بجنب البوابة، عند ذلك سنفتح لك بوابة الأحلام هذه، وندخلك، لتحصل على ما جئت من أجله، كن متأكداً أننا سنمتعك متعةً ليس بعدها متعة، لا تتردد.

ماذا يفعل الآن؟ تردد قليلاً، لكنه كان أمام إجابةٍ واحدةٍ واختيارٍ واحدٍ، عبث في جيب جلبابه متجاوزاً الجنيهات التي جمعها من الفلاحين الأغبياء الذين صدقوه، همس لنفسه:

- لا بد أنهم يريدون بهذه اللعبة أن يزيدوا من الإثارة، نعم، مزيداً من الإثارة مزيداً من المتعة، وما له، ماذا تعني بعض قروشٍ قليلةٍ.

هز كتفه وزم شفتيه وهو يلتقط القروش القليلة، وضعها في فتحة الصندوق فسقطت تقرقع.

دار المصراع الأيسرعلى محاوره محدثاً صريراً صارخاً ضجت من صوته روح الرجل الريفي، خطا داخلاً بلا حذرٍ ولا رويةٍ، ثم توقف، لم يكن هناك إلا نفس البلاطات البيضاء والسوداء، التي ترصف الأرض كأنها لوحة شطرنج كبيرة، ارتعد كعنزةٍ صغيرةٍ من برودة البلاطات، مشى في حذرٍ خطواتٍ قليلةً، ثم وقعت عيناه على حوريةٍ من حوريات

الجنة، تمدد جسدها النوراني على شيزلونج، اقترب وهو يهدئ من روع نفسه، رآها تومئ له، وتشير بأطراف أصابعها الطويلة الجميلة إليه، وتهمس بصوت حالم يرن في أذنيه(تعال، إجلس بجانبي، وآنس وحدتي ووحشتي، تعال).

همس وهو يكاد لا يصدق عينيه:

- حورية من حوريات الجنة، جسدها يشع ضوءاً لاتخفيه ملابسها التي تشف عنه، إنها ولا شك المدينة تناديني وتفتح لي ذراعيها.

مشى ببطءٍ كالمنوم إليها، ابتسمت له ابتسامةً أطارت عقله،غنت بصوتٍ هامسٍ كلماتٍ لم يدرك معانيها، ثم غنجت غنجاً بدد ما تبقى له من صبرٍ، مد ذراعيه واندفع نحوها ليحتضنها، تفزعت، ونهضت واقفةً، راغت منه، كاد ينكفئ، لكنه تماسك.

أومأت له، وهي تعدو، جرى خلفها، بديا كطفلين يلعبان المساكة، يبطئ خطوةً، فتبطئ له خطوها، يسرع ليمسك بها، تعدو في مساحاتٍ من وهمٍ واستحالةٍ، جري خلفها كأنه حمار يبرطع، معتبراً أن ذلك جزء من لعبة المتعة والإثارة.

لكن الايقاع أصبح أسرع وأسرع حتى تقطعت أنفاسه، وهو يهمس:

- أيتها المرأة، أيتها الدنيا توقفي عن الجري، أنت لاتعرفينني، أنا أمتلك نفساً طويلاً ولا أتعب، سأجهدك، وستقعين في يدي عند النهاية.

توقفت، وأومأت له ببعض إيماءاتٍ جنسيةٍ مثيرةٍ، أخرجت له طرف لسانها الأحمر، ولعبت به في الهواء، جن جنونه، انطلق يعدو نحوها، فأخذته دورتين مستحيلتين دوخت عقله وقدميه، توقف وصدره يعلو ويهبط.

اندفعت تجري خلفه، أعجبه أن يكون المطارد، جرى أمامها وهي تعدو خلفه، أخذه مكر الريفي إلى أن يتخير لحظةً ماكرةً، يتصنع أنه وقع في يدها، ثم يمسك بها، أبطأ فجأةً واستدار ماداً ذراعيه وطوقها بهما، لم يدرك إلا الفراغ، بهت وملأ صفير غامض أذنيه وأصفر وجهه وفقد أنفاسه وماتت رغبته الجامحة المتأججة، سقط على الأرض يجمع ما تبعثر منه، وانهمرت دمعات كبيرة من عينيه، وهو يهمس:

- قحبة.

توقفت الحورية حين قرعت الكلمة أذنيها، استدرت، ومشت إليه، هتفت بصوتٍ خشنٍ وهي تجذبه من ياقة جلبابه:

- القحبة هي أمك، قم، يا ابن.....، أقسم لو أنك أمسكت بي، سأجعلك تذوق ما لم تذقه في حياتك من لذيذ الشهوة،

وسأريك ما لم تر عينك، وأسمعك ما لم ولن تسمع مثله في عمرك كله ما عشته منه وما لم تعش.

كان جالساً على الأرض، يرقبها بعينين مذهولتين وهي ترقص على مهلٍ في مساحاتٍ من ضوءٍ أخضر مغزولٍ من وهمٍ وخيالٍ.

جمع أنفاسه، وأخذ يهدئ من اضطراب نفسه وقلبه، واستجمع بقاياه، قرر أن يبدأ معها جولةً جديدةً، وقف واضعاً طرف جلبابه في فمه، توقفت عن الرقص، ابتسمت له، تباطئ في خبثٍ، هَمَّ يقترب منها، فاندفعت تجري في خطٍ مستقيمٍ، جري خلفها حتى أدركها، توقفت عند البوابة وهي توليه ظهرها، مد يديه ليطوقها وعلى وجهه ابتسامة منتصرة، استدارت نحوه، بهت وهو يرى امرأةً عجوزاً شاحبةً مهدمةً تبتسم، فتفصح له عن فمٍ خالٍ من الأسنان، قبل أن تنفذ من البوابة، وتتلاشى عن ناظريه.

صرخ صرخةً مرتعبةً قبل أن يسقط راكعاً على ركبتيه، وفي يأسٍ دق الأرض بقبضتيه المطبقتين حتى أدماهما.

***

٥. نهض يجفف دموعه في كم جلبابه، بدا ضعيفاً يائساً، لكنه فكر بعمقٍ فيما يعيشه منذ أن دخل الزقاق، همس:

- إنه فخ نُصِبَ لي.

بحث في أعماقه عن ذلك الماكر الداهية الذي تلاعب يوماً بأقدار الآخرين، رآه هادئاً يطل عليه بابتسامة واثقة، ذلك ما يجب أن يكون عليه ليكسب اللعبة.

نهض، ومن عجبٍ أنه لم يشعر بتعبٍ أو إرهاقٍ، يعرف الآن ما الذي يجب أن يفعله، اتجه نحو البوابة، ودون أن يقرأ البطاقة المعلقة مد أصابعه والتقط قروشاً قليلةً ودفع بها إلى الصندوق، سمع قرقعتها في قاعه، قبل أن يلفظ الصندوق ورقةً صغيرةً طارت في الهواء وسقطت على الأرض، انحنى والتقطها، قرأ ما كتب عليها:

- أنت أيها الأخ الناصح، إدفع بعض جنيهاتٍ صحيحةٍ، وضعها في الصندوق المعلق بجنب البوابة، عندها سنفتح لك بوابة مملكة الأحلام هذه، وندخلك، لتحصل على ما جئت من أجله، كن متأكداً من أننا سنمتعك متعةً لاتنسى، لا تفقد صبرك أو إيمانك ولا تتردد.

للحظة ابتأس وجهه، لكنه لم يطل التردد، مد أصابعه وأخرج حافظة نقوده التي أخفاها في لباسه، والتقط عدة جنيهاتٍ، لم يعتن بعدها، ودفع بها إلى الصندوق، مرت دقائق ثقيلة سمع أصواتاً كثيرةً متداخلةً تتجادل:

- لا تفتح البوابة له.

- إنها يجب أن تُفْتَحَ.
- يجب أن يدفع أكثر.
- إنه لا يستحق.
- يجب أن يُفْتحَ له.

غامت عيناه، وارتبكت مشاعره قبل أن يسمع للمرة الثالثة مصراع الباب وهو يدور حول محاوره زاعقاً في الوجود الساكن من حوله، لكن صريرالمصراع توقف فجأةً، وبدا الباب مفتوحا نصف فتحةٍ.

دون ترددٍ خطا بنصف جسده وهو يجهد أن يدفع المصراع بكل ثقل جسمه، حتى نفذ بصعوبةٍ داخلاً، توقف يلتقط أنفاسه، رأى نفس الصالة ونفس البلاطات البيضاء والسوداء وإن كانت أقل حجماً، سمع صوت المصراع ينغلق عليه، فخطا أكثر وأكثر.

تعجب حين رأى حوائط القاعة مغطاةً بمرايا من كل نوعٍ، مرايا محدودبة، وأخرى مقعرة، وثالثة تعكس أشكالاً غير منتظمةٍ، لكنه لم يعبأ بالمرايا، كان كل ما بداخله يعمل في اتجاه أن يخرج من هذه المتاهة.

وهو غارق في أفكاره، سمع صوتاً خافتاً يجيئ من لا مكانٍ:

- أنت أيها الأخ.

توقف محاولاً أن يتابع الصوت مرةً أخرى، لكن الصوت كف عن النداء، رفع الرجل الريفي عينيه، رأى المرايا تغطي سقف المكان، مئات من المرايا المربعة الصغيرة، ثم سمع الصوت يجيئ واضحاً قوياً:

- أنت أيها الأخ الذي جاء قاصداً مدينتنا مملكتنا،ليشاركنا أحلامنا، وفخنا، لعناتنا، ونساءنا، محلاتنا، وسينماتنا، وزيفنا، وحكوماتنا، ليجلس على مقاهينا، ويمشي في شوارعنا وحوارينا، ويضيع في متاهاتنا، ويذوق معنا موتنا، ويقبر في مقابرنا، باختصارٍ شديدٍ: يعيش حياتنا، دعنا أولا نحييك مرة أخرى، لكن لنا مطلباً واحداً معقولاً وبسيطاً، إنه سؤال، نعم هو سؤال بسيط، إن تجب عنه، تفز بالنجاة، عندها تصبح واحداً منا عارفاً خيرنا وشرنا وتأكل خبزنا وتشرب ماءنا، وإن لم تجب، تدفع نصف ما معك من نقودٍ، أموافق أم غير موافقٍ؟

هز الرجل رأسه كجحشٍ صغيرٍ غريرٍ بلا تردد، وصرخ:

- موافق.
- جميل جداً، السؤال إذن هو، من أنت من بين الأشكال التي تعكسها المرايا أمامك؟ اختر، لك أن تختار مرةً واحدةٍ، مرة واحدة فقط لك أن تختار، أمامك خمس دقائق، حظاً سعيداً نتمنى لك.

توقف الصوت تماماً، وحل صمت عميق من حوله، وبدأ الرجل يدير وجهه وعينيه في مئات الأشكال التي انعكست أمامه، لكنه ابتأس، فلم يكن في قريته البعيدة مرايا، فقط كان كالآخرين هناك يري نفسه في عيون أهله والناس المحيطين به، أو في تلك المرات كلما حلق شعر رأسه على فتراتٍ متباعدةٍ استطاع أن يبصر انعكاسه في مرآة الحلاق، لذلك لم يستطع أن يتذكر كيف كان يبدو، حاول تذكر آخر المرات التي رأى نفسه فيها مستعينا بخياله، انتهى إلى حقيقته، إنه في نهاية الأمر مثل كل أبناء عشيرته، فلاح جبلي قوي البنية، له شعر أسود داكن، وبشرة سمراء لوحتها الشمس، وقسمات دقيقة وطول متوسط، استجمع في خياله صورته، وهمس مشجعاً نفسه:

- أجرب، وسأفوز.

عبر الأشكال المنبعجة والمقعرة والمستديرة، ووقف أمام أكثر الأشكال اتساقاً، كان مرورالوقت يحز في دمائه، سأل نفسه:

- من يا ترى أنا ؟ هل أنا ذلك الضاحك ؟ ما أظنني، أو ذلك الباكي؟ نعم، لقد أمسكت بي، وهذه آثار الدموع التي ذرفتها منذ قليلٍ تدل علي.

صرخ:

- أنت، أيها السائل، ها هو أنا.

أشار بأصبعه نحو الانعكاس الباكي، سمع ضحكةً مدويةً فاجرةً تشبه تلك التي لسعت بها النسوة الجالسات بالزقاق قفاه، ارتبك وتلعثم، سأل في بؤسٍ:

- أ أنا مخطئ ؟

جاءه الصوت ساخراً:

- طبعاً يا مغفل، أخطات.
- لكنه كان انعكاسي الباكي.
- الباكون كثيرون، لكنك لم تدرك ذلك، الآن عليك أن تدفع نصف ما معك، لتخرج من متاهتك، آه، تذكرت، يمكنك أن تكمل البكاء.

مضى في صمتٍ نحو الصندوق، وهو يدرك جيداً ما يجب عليه فعله، أسقط في الصندوق نصف ما معه بالتمام والكمال، وبلا أية محاولةٍ للتلاعب أسقط جنيهاته في صمتٍ، وانتظر.

سمع الصرير المؤلم للمصراع وهو يدور على محاوره، وينفتح أمامه.

***

٦. **لملم نثار روحه المفزوع، وجفف بقايا دموعه ببطن كفيه واستدعى بقاياه القديمة، ليستعد لجولةٍ جديدةٍ مع المجهول الذي يعيشه غصباً وكرهاً، مر من البوابة مصحوباً بضحكاتٍ ساخرةٍ، لايدري أتنبع من أعماقه أم إنها تجيئ من خلف البوابة التي أُغْلقَتْ تواً عليه، همس وهو يسمع صك المزلاج عليه:**

- لن أيأس، ولنرَ.

وبينما هو غارق في أفكاره، عاد الصوت يقول :

- عليك يا بني أن تستعد للجولة الجديدة، إن فزت لن تفوز فقط بالمنى والطلب، لكنك ستفوز بكل ما حلمت به يوماً، وإن أفلتت منك الجولة، آه آه، فسوف...

ابتأس وجهه، فقال له الصوت:

- ها، أ سنعيط أم سنلعب؟

همس في غل واصرارٍ:

- سنلعب.
- مادمنا متفقون، سنتلو عليك شروط الدور، فنحن عادلون تماماً كالحياة نفسها، ستلعب معنا دور شطرنج، دعنا نبدأ

بـافتراض أنـك سـتفوز، إن تفـز تنـل جـائزةً عظيمـةً، ولمـاذا سنضيع الوقت في الوصف، انظر إلى الشاشة المعلقة على الحائط، لترى بنفسك عزك الذي ستنال.

دار على عقبيه، وطوح رأسه، رأى شاشةً كبيرةً معلقةً إلى الحائط، تعرض فيلم بالتصوير البطيء، بدا أمام عينيه قصر بالغ الأبهة غارق في نصف إضاءةٍ، دارت الكاميرا حوله ثم مضت تصعد درجات سلمٍ درجةً درجةً، وقفت عند بابه الذي فُتِحَ، مرت الكاميرا بجوانبه وجدرانه المزدانة بلوحاتٍ من الزجاج المعشق تعكس مناظر طواويس مختالةٍ، وجوارٍ يرفلن في ثيابٍ شفافةٍ، يكدن ينطقن بالحياة، ثم انسل صوت موسيقى خفيةٍ، كأن أصابعهن داعبت أوتار قيثاراتٍ من وهمٍ وخيالٍ، فانساب لحن أغن حالم في أرجاء المكان، تجمد الرجل الجبلي في مكانه فاغراً فمه.

ثم مرت الكاميرا على الأثاث قطعةً قطعةً، ووقفت في منتصف صالة كبيرةٍ، بعدها انفجرت موسيقي صاخبة، ونزلت نساء صاخبات درجات السلم جرياً، ومن خلفهن جرى رجال أجسادهم تعج بالعضلات.

كان الرجل الريفي مايزال واقفاً فاغراً فمه، حين بدأت النساء في الرقص وهن يخلعن ملابسهن قطعةً قطعةً، وكذلك فعل الرجال، وللحظةٍ خال أنه يحلم وهو يرى نفسه قادماً من عمق المكان إلى منتصف الصالة، يرمى عن جسده جلبابه، ويفك تكة سرواله، صرخت

النساء في وحشيةٍ، وهن يبصرن ذلك الذكرالضخم القادم من خلف الجبال البعيدة ليغزو المدينة، اقتربن منه، وبدأن يتفحصنه، وتبادلن الغمز واللمز والضحكات القصيرة.

ثم غرق المكان في نصف إضاءةٍ، بينما انقلب الرجال على النساء عضاً وتبويساً، وأصدرت النساء أنيناً وانياً وغنجن غنجاً أبح، بينما ظل الرجل الريفي واقفاً فاغراً فمه من الدهشة.

ثم انطفئ المشهد أمامه، وعاد الصوت يقول:

- أما إذا خسرت يا حلو الملامح، خسرت نصف ما معك بالتمام والكمال، نصف نقودك، نصف ثيابك، فردة من حذائك، وبالطبع كل شرفك، نعم نعم، سنتقسم معك كل شيءٍ إلا الشرف، هذا أليق بك لتصبح قابلاً أن تكون فرداً في عالم الأنصاف.

***

على رقعة البلاطات المتراصة، وجد قطع شطرنج بيضاء وسوداء تماثل الإنسان طولاً ملقاةً على جنوبها، فهم ما يجب عليه أن يفعل، أخذ يعدل القطع ويرصها،حتى استوى أمامه ملك أسود، ووزير، وفيلان، وفرسان، وطابيتان، أمامهما صف من ثمانية بيادق، كلها تكاد

تماثله طولاً، وبذل في ذلك جهداً كبيراً، فهي لم تكن قطعاً خفيفةً، ولما انتهى جلس على الأرض يلتقط أنفاسه ويجفف عرقه.

مضى إلى الجانب الآخر، وأخذ يرص القطع البيضاء، ولما انتهى، وقف يجمع نثار نفسه، ويجفف قطرات عرقه التى ندت جبينه، وانتظر.

جاءه الصوت الغامض (أنت أيها الأخ)، ثم توقف الصوت، انتبه الرجل، عاد الصوت يقول:

- يجب أن تبدأ باللعب.

مشى كالمنوم حتى أصبح في منتصف اللوحة تماماً، شمر عن ساعديه، وبكل ما أوتي من قوةٍ رفع بيدق الوزير ومشى به مربعين كاملين ثم أسقطه، تأرجح البيدق، فسنده بكفيه حتى استقر مكانه.

قال له الصوت:

- مفتتح غبي بلا شكٍ، سيحتاج منا إلى رد ماكرٍ، ما رأيك في (فرس ٣ فيل الملك)، خذ.

في تلقائيةٍ، قفز الفرس فوق صف البيادق السوداء، واستقر في المربع أمام الفيل الأسود.

بدا وزيره مكشوفاً، قرر وهو حائر خائف، أن يحرك فرس الوزير، لقي عناءً شديداً ليسقط الفرس أمام الوزير معلناً بصوتٍ عالٍ:

- (فرس ٢ وزير).

جلجل الصوت الغامض بالضحك قبل أن يصرح:

- (بيدق ٤ ملك).

قبل الرجل البائس الهدية ودون أن يجهد نفسه بالتفكيرابتلع الطعم، قال وهو يرفع البيدق القتيل:

- (بيدق x بيدق).

جاهد ليخرج البيدق القتيل من فوق اللوحة، وجاهد أكثر ليسقطه في البرميل الخشبي الموضوع عند طرف اللوحة.

لكنه وهو عائد اكتشف أن جناح ملكه صار مكشوفاً، فارتعد قلبه وتلاحقت أنفاسه، وغامت عيناه حين رأي اللاعب الخفي يأتي بحركةٍ قاتلةٍ، وهو يصيح معلنا:

- (فرس ٥ فرس).

أعقبت صيحته ضحكةً خشنة، دوت كأنها وقع طرقاتٍ قويةٍ على صنوجٍ من نحاسٍ ثقيل، تفرقت أصداؤها في أرجاء المكان، وصمت

أذني رجل الجبال البعيدة، فتسلل إلى روحه إحساس مر بالهزيمة، لكن الأمل راوده، عاود النظر فى أمره، فلم يجد سوى احتمالٍ واحدٍ، هو (بيدق ٣ طابية الملك)، وما إن هم يفعل، حتى سمع صوت الكائن اللامرئي يصرخ:

- أنت، أيها الفلاح الأحمق،إن فعلت ذلك لن يكون أمامك سوى أمرين أحلاهما مر، أولهما أن تخسر وزيرك، أو أن تنال مني (كش ملك) في خطوتين.

***

سقطت ذراعاه المرفوعتان، ووقف مذهولاً في مكانه، ثم جاءه الصوت الخفي كقرع الطبول:

- الآن، انتهى أمرك، كش مات، دعنا نأتي إلى اتفاقنا.

انشقت الأرض عن مصارعين مفتولي العضل، أمسك كل واحدٍ منهما بذراعٍ من ذراعيه، شقا قميصه نصفين، وتركا نصفاً عليه، ورميا بالنصف الآخر، فطار في الهواء وسقط على الأرض، خلعا عنه نعله، أخذا واحداً وتركا له واحداً، ثم فتشا جيوبه، وأخرجا حافظة نقوده، اقتسما ما بها، وأمسكا بالخطابات المرسلة معه، ومزقاها نصفين، حتى الأحجبة الثلاثة التي معه أخذا واحداً وانتصفا واحداً نصفين، وتركا له واحداً ونصف الواحد.

جاءه الصوت الخفي:

- الآن وبعد أن دفعت نصف ما معك بالتمام والكمال، ادخل من الباب.

سمع صرير البوابة وهي تفتح أمامه، بقى ساكناً راكعاً يفكر، أخذه الأمل بعيداً (إنها نهاية اللعبة، أعشم أن يكون الأمر كذلك، لو صحت أفكاري، سوف أعود إلى قريتي فور خروجي)

جاءه الصوت الخبئ:

- فيم تفكر يا رجل، اللعبة بعد لم تنتهِ، وللمتعة والإثارة أوجه بعد لم ترها، هل نسيت قوانيننا، تذكرالقانون الأساسي من يلعب معنا يلعب حتى نهاية الشوط.

***

مضي بقلبٍ مضطربٍ خائفٍ يحبو على ركبتيه نحو مصراع البوابة المفتوح بداخله عصف من الأسئلة:

- يا ترى ماذا يختبىء خلف هذا الباب؟

***

٧. **الآن، بعد أن أصبح نصفاً مكتمل الانتصاف عليه أن يواجه مجهولاً جديداً بنصف شجاعة ونصف مالٍ ونصف رغبةٍ ونصف أملٍ في النجاة، بل قبل كل ذلك عليه أن يجمع شتات هذه الأنصاف إلى بعضها؛ ليصنع نصف رجلٍ كاملٍ يواجه به المستحيل الذي يعيشه لحظةً بعد لحظةٍ.**

***

بلا خطةٍ ولا تعقلٍ بعد أن اهتزت أركان نفسه من الهزائم المتتالية التي لقى، وقف متساناداً على الخواء الذى يحيط به، لكنه لم يفقد الأمل بعد، همس:

- لنرَ.

سمع صوتاً يسأل:

- ماذا تحب أن ترى أيها النصف ؟

استدار وحجل ماشياً بفردة حذاءٍ واحدةٍ محاولاً أَن يدرك من أين يصعد ذلك الصوت، لم يدرك سوى الصمت والخواء الملمين به، ثم سمع ضحكةً مدويةً كأنها تأتي من الجبال البعيدة التي تركها خلفه بمئات الأميال، أعقبتها ظلمة حلت بالمكان، ومن قلبها الحالك خرجت له النسوة الثلاث العجائز، رآهن يقبلن نحوه من عمقٍ مراوغٍ، وقفن

عنده، نظرن طويلاً إليه وهو يرتعد كعنزةٍ صغيرةٍ، ابتسمن في أسىً، ومضين عنه، ظل شاخصاً إلى ظهورهن وثيابهن السوداء التي مسحت أطرافها بلاطات الأرض.

جاءه الصوت الساخر:

- الآن ستلعب بنصف ما تبقى لك، إن تفز، تعد إلى سابق ما كنت عليه، تأكد أنك ستحصل على فردة حذائك المفقود وكل أنصاف الأشياء التي فقدت، وإن تهزم يا رجل، نخلع عنك ما تبقى.

تساءل:

- وما الذي سنلعبه معا ؟
- المصارعة، نعم المصارعة الحرة لعبة لا يصح لمن يرغب أن يعيش في المدن ألا يجيدها، و ...

لم ينته الصوت من كلامه حتى دخل من الباب مصارع ضخم الجثة، لايغطي شيء جسده سوى ما يستر العورة، كان يتقافز في مكانه كأنه جني، لم يضع وقتاً، اندفع نحو رجل الجبال، طوق خصره بذراعيه المفتولتين، صرخ رجل الجبال وتلوى، لكنه امتص الاندفاعة الهمجية الأولى، وبادر بدفع ذراعيه ليطوق بهما خصر ذلك العملاق، ومن عمق اليأس والأمل معا، وربما من عمق الجوع والخوف والجنون،

شد على خصر المصارع حتى هصر خصره هصراً، سمع المصارع يصرخ من الألم قبل أن يتهاوى على الأرض منهزماً.

بلا مقدماتٍ، تغطى جسده بالثياب مرةً أخرى وعادت له فردة حذائه المفقودة، سمع صوت همهمةٍ خشنةٍ تمضغ كلماتٍ غير مفهومةٍ ثم صوتاً ساخراً يقول في لهجةٍ مسرحيةٍ مضخمةٍ:

- هذه شجاعة الحيوانات، ومع ذلك تستحق تهنئةً من القلب قد كسبت الدور، الآن ستدخل باباً جديداً مكللاً بالنصر منتعلاً فردتي حذاءٍ وحاملاً شرفك معك.

ثم هزت أركان المكان ضحكة ساخرة فاجرة.

***

٨. أصابه النصر الذي حققه بقدرٍ من الراحة والزهو والأمل، مضي نحو الباب الذي تلى خفيفاً مجنحاً، انفتح الباب أمامه، فسمع أبواق النصر تصدح في جنبات المكان، أعقبها صوت قاسٍ يدعوه للدخول.

دخل بسهولةٍ، لم يكن أمامه سوى نفس البلاطات اللعينة.

كان محاطاً بالفراغ والعدم واللاشيء، بحث بعينيه فيما يلفه، كان مشوش الذهن والخاطر، لا يدري لِمْ عضه الجوع فجأةً، صرخ في أرجاء المكان:

- أنا جوعان جوعان.

جاءه الصوت قاسياً بارداً:

- لاشيء بلا ثمنٍ.
- ماذا تعني ؟
- إدفع ما معك من نقودٍ، نطعمك ونسقيك.
- كل ما معي؟!
- نعم كل ما معك.

لأنه كان يدرك أن ما باليد حيلة، ضرب يده في صداره، وأخرج ما خبأ في جيب جلبابه ورمى بالنقود على الأرض، ودفع.

جاءه الصوت:

- دجاج مشوي.

أبصر صينية كبيرة موضوعة على الأرض بها أجزاء دجاجٍ مشوي، هم نحوها، هتف به الصوت:

- إزحف.

تعجب، وتساءل:

- لِمْ يجب أن أزحف ؟
- لتأكل.

زحف كجروٍ صغيرٍ، وهو يرى عدة جراءٍ صغيرةٍ تخرج من الأركان، تحيط به وتزحف معه وهي تهز ذيولها له.

كان كلما أدرك الطعام الموضوع على الأرض، جذبت قوة خفية الطبق من أمامه، ظل يزحف والطبق المملوء بالطعام يزحف، مد مخلبه وانقض على ورك دجاجةٍ وأعمل أسنانه فيه، كذلك فعلت الجراء الصغيرة، ثم كرر ما فعل، وكذلك فعلت الجراء، حتى أصابه الشبع، نسى أحزانه وتملكته فرحةً طاغيةً كأنها السعادة نفسها، غنى من عمق السرور:

- يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده.

ثم خطف رغيفاً فارغاً، وعض عليه بأسنانه، وأعملها فيه، بعدها اختفى الطبق، شكرته الجراء الصغيرة،هزت ذيولها له، واختفت عن ناظريه، بقى واقفاً وحيداً عند الباب الذي التالي، وجده بابا نصف مفتوحٍ.

***

دخل من عمق الذل واليأس اللذين عاوداه بعد أن زالت نشوة الشبع، وماتت كلمات الأغنية على شفتيه، مشى على مهلٍ وفي غير ترددٍ، جال ببصره في أرجاء المكان، همس ساخراً:

- شجرة ؟ أخيراً شجرة.

كانت شجرة ضخمة سامقةً وارفةً مورقةً، مال في اتجاهها أملاً في بعض ظل من ظلها المترامي، وما إن هم يجلس حتى انسحب الظل واختفت الشجرة، وماجت الأرض من حوله وأصعدت عموداً من دخانٍ، اعتصر الخوف قلبه اعتصاراً، واصطكت ركبتاه، وهو يرى الدخان يتلاشى ليسفر عن عفريتٍ ماردٍ، جلجل بالضحك وهو يمسك به من قفاه، ويهتف في سخريةٍ:

- شبيك لبيك، أيها الفأر البائس، اطلب ممن يطيع أيها الرقيع.

أخرسه الرعب، هزه العفريت هزاً شديداً، وتساءل:

- أ تكون ميتاً؟

هز رأسه وطرفت عيناه، وجف ريقه، وأخرج صوتاً كحشرجة رجلٍ يحتضر:

- لا مطلب لي سوى أن أعود لقريتي وأمي.

همهم العفريت وقال ساخراً في قسوةٍ:

- وبالطبع إلى ناسك وأهلك، لكنني قبل أن لا أجيب مطلبك، أود أن أخبرك أنني أخو الحورية التي قابلتها في مطلع الأمر، جئت لأنتقم لشرف العائلة الذي انتهكته بيديك الآثمتين.
- أنا لم أمسسها.
- ذلك لأنك لم تطالها، الآن إخلع عنك ثوبك.
- لماذا ؟
- لآتيك، ونصبح بعدها متساويين فيما أهدر من شرفنا.
- دون هذا موتي، إقتلني إن شئت.

دمدم العفريت مرغيا مزبداً، وهرش قفاه، وقال:

- إذن إدفع كل ما معك.
- ماذا تفيدك نقودي وأنت جن مارد؟
- لا شيء سوى أن نجردك مما يسوء دخولك مدينتنا كمواطنٍ له كل حقوق المواطنة، أنت اليوم تولد من جديدٍ.

وهو بين اليأس والرجاء تذكر أنه لم يعد يملك مالاً، همس:

- لقد دفعت ودفعت ودفعت، حتى لم يعد معي ما أدفعه.
- أتكذب على أنا الذي يحاول أن يطهرك ويزكيك ؟ حسن جداً، إنض عنك ثيابك، أو سأنضوها أنا عنك.
- أرجوك، كفاني مالقيت من ابتذال نفسي.

هم يجري نحو الباب المغلق، أمسك العفريت به، وخلع عنه ثيابه، وبدأ يلجه، ومن عجبٍ أن الرجل الريفي شعر براحةٍ كبيرةٍ تعتريه، ولم يشعر بألمٍ، لأن العفريت كان بارعاً ورقيقاً، وعندما انتهى منه، ربت عليه في حنوٍ بالغٍ وهنأه، تنهد، وتسلل إليه نعاس حلو، فنام.

***

كان الوقت في أول المساء حين استيقظ من نومه، تمطى وتثاءب، ثم صفعته الذاكرة، جلس في ركنٍ يبكي كجروٍ صغيرٍ، ولم ينتبه أنه قد خرج من متاهته، إلا عندما رأى صفاً طويلاً من الناس، جاء ليهنئه باعتباره مواطناً جديداً كل الجدة على المدينة، هناك كان رؤساء الأحزاب، قال أحدهم:

- نحن حزب الفقراء الكادحين، وما أظنك إلا واحداً منهم.

وآخر قال:

- لاتبدأ حياتك بالانضمام إلى الجوعى فتصير جائعاً مثلهم، من جاور السعداء أصابه السعد، نحن حزب الرخاء والرفاهية، صوتك أمانة في عنقك إعطه لمن يستحق.

وقال ثالث ورابع:

- نحن حزب الله، مفاتح الجنة عندنا، إن كنت تطلب الدنيا، فالدنيا متاعها إلى زوالٍ.

قاطعه صوت خامس:

- تعال إلى إخوة الرب لترث ملكوت السماوات.

ثم قفزت إليه امرأة، قالت:

- أنا، من جئتَ تريد وتطلب من هذه المدينة، أدخلني تدخل المدينة.

كان دوار يمسك برأسه، نهض، ومشى ليدخل كل دروب وشوارع المدينة؛ ومن خلفه الآف الأصوات تدعوه ليصبح واحداً من الأوحاد الذين يتبعونها، بينما لاحت لعينه قريته البعيدة وهي تجف وتموت وتتلاشى من الوجود.

نبذة عن الكاتب

- **جمال زكي مقار** قاص وروائي من مواليد سنة ١٩٥٥م.
- عضو إتحاد كتاب مصر.
- عضو بنادي القصة.
- **جوائـز أدبية:**
- جائزة سعاد الصباح سنة ١٩٩١م.
- جائزة إحسان عبدالقدوس سنة ١٩٩١م.
- جائزة نجيب محفوظ للرواية عن المجلس الأعلى للثقافة سنة ١٩٩٥م.
- جائزة يوسف السباعي للنقد الأدبي عن المجلس الأعلى للثقافة سنة ١٩٩٦.
- جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٩٨م.
- جائزة ساويرس للقصة القصيرة سنة ٢٠٠٧م.

صدر للكاتب:

- "**الضعيفة يأكلها القراد**" مجموعة قصصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١م.
- "**أغنية الدم**"، رواية، دار سعاد الصباح ١٩٩٥م.
- "**طريد وقصص أخرى**"، المركز الثقافي العربي فى بيروت ١٩٩٦م.
- "**تحولات إنسان عابر**" مجموعة قصصية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨م.
- "**جواد**" رواية، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤م.
- "**سفر الطفولة، ونصري والحمار**" ورايتان (دارالعين) ٢٠٠٦م.
- "**كتاب الودعاء**"، رواية، دار الشروق ٢٠٠٧م.
- "**رقصة الكتكوت الأخيرة**" رواية، مطبوعات ورشة الزيتون ٢٠١١م.
- "**بينما فيروز تغني**"، مجموعة قصصية، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٢م.

الفهــــرس

إهـــداء ٥

١ – القرداتي.. ٧

٢ـ الداعشي ٣٣

٣– ببغاء يقول الحقائق كما هي ٦٩

٤ – مدينة الأحلام الضائعة.............................. ١٠٥